العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

صدى فتح مكة
في وجدان الشعراء المعاصرين له

د. الطيب علي الشريف
جامعة السابع من إبريل - كلية الآداب

مقدمة:

وقع فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وهو يعد من أعظم الفتوحات الإسلامية، وأشهرها، إذ مهد لبناء الدولة الديموقراطية الحقة، من جميع جوانبها: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، وفتح الطريق أمام المسلمين لنشر دين الله في الأرض شرقاً وغرباً، وجعل من جزيرة العرب قبلة لمن أحب الأمان والسلام والهداية.

وهذا الفتح العظيم يحمل في طياته للمسلمين من العظات والعبر ما يفيدهم في حياتهم، وتطويرها لو أرادوا، ففيه توحيد الكلمة، والشجاعة والتصميم، والسرية التامة للجيش، والتعاطف، والتراحم، ومراعاة النواحي

الإنسانية، وتأديب المارقين عن الحق والعدل، وما شابه ذلك من العبر التي تصلح تشريعاً يهتدى به.

وإلى جانب هذه العظات الكثيرة المنوعة، هناك رافد آخر مهم جداً يمكن استخلاصه من فتح مكة، وهو الجانب الأدبي الرفيع الذي يمثله الشعر الكثير المنوع، المصاحب لهذا الفتح المبين منذ اللحظة الأولى التي بدأ التفكير فيها بالزحف على مكة، مقر الأصنام، لتطهيرها مما دنسها به المشركون من أوضار عبادة الأوثان.

وإن الناظر في الآثار الأدبية لفتح مكة، ولا سيما الشعر، لتتحقق لديه بكل تأكيد مقولة ابن عباس: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب»[1]، فقد سجل الشعر أهم الأحداث المصاحبة لعملية الفتح، كما عبر عن مشاعر العرب العامة تجاهه، وأظهر أحاسيسهم نحوه، من مرحب به، مشجع عليه، أو كاره له، منفر منه.

وسوف يتم تناول الآثار الشعرية للفتح المبين، بحسب تسلسل أحداث الفتح، وإن المنهج العام للبحث سيسير في خطوتين متتاليتين:

أولاهما: تتبع مراحل الفتح، ثم استعراض النصوص الشعرية المصاحبة لها، وتوضيح ما يحتاج إلى توضيح من معان ومفردات، والترجمة لما يتطلب ذلك من أعلام ومدن وقبائل ووقائع وغيرها.

وأخراهما: الدراسة الفنية لهذه الآثار، وتشمل الصورة الأدبية، والأساليب، والألفاظ، وما يمكن استخلاصه من مزايا أخر تظهر من خلال متابعة تلك الآثار في مختلف جوانبها، مع التزام الاختصار غير المخل ما أمكن.

والبحث في مجمله يتألف من العنوانات الرئيسة التالية:

قبل الفتح/ خرق الهدنة/ الشعر الذي قيل في الحرب بين خزاعة وبني بكر/ الاستنجاد بالرسول/ ندم قريش/ الاستعداد لفتح مكة/ حاطب وقريش/ في الطريق إلى مكة/ إسلام أبي سفيان بن الحارث/ إسلام أبي سفيان بن

---

(1) الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط: 4، دار الجيل، بيروت، 1972)، 1: 30.

حرب/ إسلام أبي قحافة/ دخول المسلمين مكة/ وصية الرسول لأمرائه/ إجارة أم هانئ/ طواف الرسول بالبيت/ طمس الصور وتكسير الأصنام/ من أحداث يوم الفتح/ الشعر وفتح مكة/ جذيمة وفتح مكة/ الدراسة الفنية: الصورة/ الأسلوب/ الألفاظ/ أسماء الرجال والقبائل والمدن/ الخاتمة/ المصادر والمراجع.

قبل الفتح:

إنه من المهم الرجوع إلى الوراء قليلاً، إلى العصر الجاهلي لمعرفة بعض الأمور التي لها علاقة بفتح مكة، وهي تلك الحروب الدائرة بين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة[2]، وبني عمرو بن ربيعة بن حارثة بن امرئ القيس (بني خزاعة)[3]، وما سببته هذه الحروب بينهم من خصومات ومشاحنات، قبيل ظهور الإسلام.

ومن ذلك: أن بني بكر اعتدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له: الوتير[4]، فكانت حرب مدمرة مهلكة، وكان الذي أهاج هذه الحرب بينهم: قتل خزاعة لرجل من بني الحضرمي[5]، من حلف الأسود بن رزن الديلي، وكان الأسود مقدماً في قومه بني كنانة لفضله فيهم، وكان هذا الحضرمي خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عَدَوا عليه فقتلوه، وأخذوا

---

(2) هم بطن من كنانة بن خزيمة، من العدنانية، ينظر أبو العباس أحمد القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (ط:1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959): 179/ 409.

(3) بنو خزاعة قبيلة من الأزد، من القحطانية، وعمرو المذكور هو أبو خزاعة كلها، وقيل غير ذلك، وإنما سموا خزاعة: لأنهم تخزعوا، أي تأخروا وانقطعوا عن قومهم، حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فتركوا قومهم ودخلوا مكة، ينظر نهاية الأرب: 244 ـ 45، وعبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (ط:2، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955)، 1: 91.

(4) الوتير: اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة، ينظر ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، (لا، ط، دار صادر، بيروت، 1977)، 5: 360، والسيرة، 2: 393 هامش.

(5) اسمه: مالك بن عباد، ينظر: السيرة، 2: 389.

ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلته، فأخذت خزاعة ثأرها من بني الأسود بن رزق: سلمى، وكلثوم، وذؤيب، وهم آنذاك قادة بني كنانة، وفي الذروة من أشرافهم، فقتلوهم بعرفة، عند أنصاب الحرم[6]، واستمر حالهم على ذلك في الجاهلية: قاتل ومقتول، حتى فرق بينهم الإسلام، وتشاغل به الناس، فلما كان صلح الحديبية[7]، وأمر الهدنة بين الرسول ﷺ والمشركين، كان فيما تشارطوا عليه: «وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، عل أن من أتى محمداً من قريش بدون إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه»[8]، فأسرعت بنو بكر بالدخول في عقد المشركين وعهدهم، وبادرت خزاعة بالاحتماء بعهد المسلمين وذمتهم، وكانت الهدنة بين الطرفين، وظن الناس أنهم أصبحوا في أمان من الحروب، وشبحها المخيف، كما نصت على ذلك معاهدة الصلح.

خرق الهدنة:

لم يلبث أمر الهدنة أن أفسده بنو الديل[9]، إذ رأوا فيها فرصة مناسبة للأخذ بثأرهم من خزاعة، بمن قتلتهم من أولاد: بني الأسود بن رزن، فأمرت نوفل بن معاوية الديلي قائداً على الديليين، وخرج بهم متربصاً بخزاعة، حتى

---

(6) عرفات وعرفة، وهي من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة، ووادیها، وبها قرى ومزارع لأهل مكة، وأنصاب الحرم: العلامات الفاصلة بين الحل والحرم، وهي أحجار مميزة، ينظر معجم البلدان، 4: 104، والسيرة، 2: 389.

(7) وقع صلح الحديبية في آخر السنة السادسة للهجرة، والحديبية: قرية على بعد مرحلة من مكة، بعضها في الحل، ينظر السيرة: 2: 308 وما بعدها، وصفي الدين عبد المؤمن البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي البجاوي، (ط:1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1954، 1: 386.

(8) السيرة، 2: 217 ـ 218.

(9) بنو الديل يرتجعون إلى بني بكر، كما ورد في السيرة، 2:390.

بيوتهم على الوتير، فقتلوا منهم رجلاً، وتنادوا للقتال، فاقتتلوا، وتدخلت قريش بثقلها مع حلفها بني بكر، فأمدتهم بالسلاح، وقاتلت معهم ليلاً مستخفية، وضيقوا الخناق على خزاعة حتى ألجؤوهم إلى الحرم، عندها طلبت بنو بكر من قائدهم نوفل أن يكف عن خزاعة، لأنها احتمت بالحرم، قائلين له: «يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلٰهك إلٰهك»[10]، ولكن نوفل أسكرته نشوة النصر، فاستمر في غلوائه، زاجراً لبني عمومته بقوله: «لا إلٰه له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه»[11]، وتقفوا خزاعة حتى ألجؤوهم إلى دار بديل بن ورقاء، ودار مولى لهم يسمى: رافعاً.

الشعر الذي قيل في الحرب بين خزاعة وبني بكر:

وفي هذه الحرب قال تميم بن أسد معتذراً عن فراره عن منبه[12]، الذي قتله بنو بكر على الوتير:

لما رأيت بني نفاثة أقبلوا ... يغشون كلَ وتيرة وحجاب[13]

صخراً ورزناً لا عريب سواهم ... يزجون كلَ مقلص خناب[14]

وذكرت ذحلاً عندنا متقادماً ... فيما مضى من سالف الأحقاب[15]

---

(10) السيرة، السابق.

(11) السابق.

(12) كان تميم بن أسد خرج هو ورجل من بني قومه يسمى: منبه، وكان منبه مفؤوداً، وقد قال لصاحبه: انج بنفسك، فإني لميت، قتلوني أو تركوني، لقد أنبت فؤادي، فهرب تميم، وأدركوا منبها فقتلوه، ينظر السيرة، 2: 390.

(13) الوتيرة: الأرض الغليظة الممتدة، أو الأرض البيضاء، والحجاب: ما أشرف من الجبل، والأرض الرقيقة المنبسطة، ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إخراج أحمد حسن الزيات وآخرين، (ط:1، لا.ن، لا، ت)، مادتي: وتر، وحجب.

(14) لا عريب: لا أحد، يزجون: يسوقون، المقلص: الفرس المشمر، الخناب: الفرس الواسع المنخرين، وقيل السريع، ينظر: المصدر السابق، المواد: عرب، زجا، قلص، خنب، والسيرة، 2: 391 هامش.

(15) الذحل: طلب الثأر، والأحقاب جمع حقبة: السنون، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: ذحل، حقب، والسيرة، السابق.

ونشيت ريح الموت من تلقائهم ورهبت وقع مهند قضاب[16]

وعرفت أن من يثقفوه يتركوا لحماً لمجرية وشلوَ غراب[17]

قومت رجلاً لا أخاف عثارها وطرحت بالمتن العراء ثيابي[18]

ونجوت لا ينجو نجائي أحقب علج أقب مشمر الأقراب[19]

تلحى ولو شهدت لكان نكيرها بولاً يبل مشافر القبقاب[20]

القوم أعلم ما تركت منبِّهاً عن طيب نفس فاسألي أصحابي[21]

ومن الشعر الذي قيل في هذه الحرب، قول الأخزر بن لعط الديلي:

ألا هل أتى قصوى الأحابيش أننا رددنا بني كعب بأفوق ناصل[22]

حبسناهم في دارة العبد رافع وعند بديل محبساً غير طائل

بدار الذليل الآخذ الضيم بعدما شفينا النفوس منهم بالمناصل[23]

---

(16) نشي: شم، والقضاب: القاطع، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: نشي، قضب، والسيرة، السابق.

(17) ثقفه: جالده بالسلاح، المجرية: اللبوة لها جراء، والشلو: العضو من الجسد، ينظر المعجم الوسيط، مواد: ثقف، جرو، شلو (شلا)، والسيرة، السابق.

(18) قومت رجلاً: عدلتها وسويتها، المتن العراء: الأرض العراء التي لا شيء عليها من شجر ونحوه، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: قوم، متن، والسيرة السابق.

(19) نجوت: أسرعت، أحقب: الحمار الوحشي أبيض المؤخرة، وهو موضع الحقيبة، العلج: الغليظ، والأقب: الضامر البطن، وهو أسرع لأنه خفيف، الأقراب جمع قرب: الخاصرة، أي خواصره منقبضة، ينظر، المعجم الوسيط، مواد: نجا، حقب، علج، قب، قرب، والسيرة السابق.

(20) (تلحى) هكذا كتبت، وصوابها: تلحا وهي بمعنى: تلوم، القبقاب: من أسماء الفرج، أو هو البطن، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: لحا، قب، والسيرة، السابق، وينظر في القبقاب خاصة: عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف، (لا. ط. دار المعرفة، لا. ن.، 1978)، 4: 96.

(21) السيرة، 2: 391، وينظر الروض الأنف، 96 وما بعدها.

(22) الأحابيش: كل من حالف قريشاً من القبائل، الأفوق: السهم الذي انكسر فوقه، والفوق: الطرف الذي يلي الوتر، والناصل: الذي زال نصله، ينظر المعجم الوسيط، مواد: حبش، فوق، نصل، والسيرة، 2: 392.

(23) الضيم هنا: الذل، والمناصل: السيوف.

حبسناهم حتى إذا طال يومهم نفحْنا لهم من كل شعب بوابل[24]

نذبحهم ذبح التيوس كأننا أسود تبارى فيهم بالقواصل[25]

هم ظلمونا واعتدوا في مسيرهم وكانوا لدى الأنصار أول قاتل[26]

كأنهم بالجزع إذ يطردونهم بفائور حفان النعام الجوافل[27]

وقد سمع بهذا الشعر بديل بن عبد مناة بن سلمة الخزاعي، فرد عليه بقوله:

تفاقد قوم يفخرون ولم ندع لهم سيدا يندوهم غير نافل[28]

أمن خيفة القوم الأُولىٰ تزدريهم تجيز الوتير خائفاً غير آئل

وفي كل يوم نحن نحبو حباءنا لعقل ولا يحبى لنا في المعاقل[29]

ونحن صبحنا بالتَّلاعة دراكهم بأسيافنا يسبقن لوم العواذل[30]

ونحن منعنا بين بيض وعتود إلى خيف رضوى من مجر القنابل[31]

ويوم الغميم قد تكفت ساعيا عبيس فجعناه بجلد حلاحل[32]

---

(24) النفح: الدفعة من الريح الخفيف، والمعنى هنا: أننا نرميهم بالخيل، أو السهام، على دفعات، الشعب: الطريق بين جبلين، الوابل: المطر الشديد، وهو كناية عن كثرة مجاميع الخيل المندفعة نحوهم، أو السهام، ينظر المعجم الوسيط، مواد: نفح، شعب، وبل، والسيرة، السابق.

(25) القواصل: الأنياب القاطعة، ينظر المعجم الوسيط، مادة: قصم.

(26) يقصد بالأنصاب: علامات الحرم بعرفات، وهي التي التقوا عندها أول المعركة.

(27) الجزع: منعطف الوادي، وفائور: اسم موضع، حفان النعام: صغارها، والجوافل: المسرعة. ينظر السيرة، 2: 392، والروض الأنف، 4: 96.

(28) يندوهم: يجمعهم في النادي، ونافل: هو نوفل الذي انتدبته بنو الديل لملاحظة خزاعة، ينظر السيرة، 2: 393.

(29) نحبو: نعطي وندفع، العقل: الدية، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: حبا، عقل.

(30) التلاعة، بفتح التاء وتشديدها: ماء لبني كنانة بالحجاز، ينظر معجم البلدان، 2: 40.

(31) بيض: من منازل بني كنانة بالحجاز، وعتود: ماء لهم، خيف رضوى: ما انحدر من جبل رضوى بالمدينة، والقنابل: الخيل، ينظر معجم البلدان، 1: 531، و4: 83، و3: 51، والمعجم الوسيط، مادة قنبل.

(32) الغميم: اسم موضع بين مكة والمدينة، تكفت: حاد عن الطريق، ينظر معجم البلداند 4: 214، والمعجم الوسيط، مادة: كفت.

أأن أجمرت في بيتها أم بعضكم بجعموسها تنزون أن لم نقاتل[33]

كذبتم وبيت الله ما إن قتلتم ولكن تركنا أمركم في بلابل[34]

وشارك حسان بن ثابت في تخليد هذه الحرب بقوله:

لحا الله قوماً لم ندع من سراتهم لهم أحداً يندوهم غير ناقب

أخصيي حمار مات بالأمس نوفلا متىٰ كان مفلاحاً عدو الحقائب[35]

الاستنجاد بالرسول:

تواطأت قريش مع بني بكر على خزاعة، وأوجعوهم تشريداً وتقتيلاً حتى زروهم إلى الحرم، ولما كان في مناصرة قريش لبني بكر خرق واضح للعهد الذي أبرموه مع المسلمين، التجأ الخزاعيون إلى النبي ﷺ مشتكين نقض قريش للهدنة، إذ رحل عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة على رأس وفد من أربعين راكباً[36]، فدخل على النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد، يحيط به المسلمون من كل جانب، فأنشده قوله:

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا[37]

قد كنتم ولدا وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا[38]

---

(33) أجمرت: رمت بسرعة، الجعموس: العذرة، وهو كناية عن الفزع وعدم الاطمئنان، ينظر المعجم الوسيط، مادة: جمر، والسيرة، 2: 393، والروض الأنف، 4: 96.

(34) السيرة، 2: 393.

(35) المفلاح: طالب الفلاح، والحقائب: ما يجعله الراكب خلقه، ومعنى البيتين هجاء لاذع، ينظر السيرة، 2: 394.

(36) ينظر عبد القادر عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط: 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986)، 6: 474.

(37) في الخزانة، 4: 474.

لاهم إني ناشد محمداً عهد أبينا وأبيه الأتلدا

والأتلدا: القديم.

(38) يقصد أن بني قصي وبني عبد مناف أخوالهم خزاعة، وأسلمنا: من السلم وليس من الإسلام، لأنهم لم يكونوا أسلموا آنذاك، وإن كان فيهم من ركع وسجد، كما في الروض الأنف، 4: 97، وينظر السيرة، 2: 394.

فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا[39]

فأثرت الأبيات في الرسول ﷺ فقال: «نصرت يا عمرو بن سالم»، ثم نظر إلى السماء فرأى سحاباً، فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»[40].

ندم قريش:

ثم إن قريشاً ندمت على مظاهرتها لبني بكر، وخافت عاقبة ما فعلت، فبعثت بأبي سفيان بن حرب ليفاوض النبي في تجديد الهدنة، وبينما هو في الطريق قال الرسول لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة»[41].

ولم يلبث أبو سفيان أن قدم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فقابلته بتجهم، وطوت دونه فراش رسول الله، لما أراد أن يجلس عليه، بحجة أنه مشرك نجس، ثم قابل رسول الله، فكلمه في أمر تمديد الهدنة، فلم يرد عليه شيئاً، فالتجأ إلى أبي بكر ليتوسط له عند رسول الله، فرفض، ثم أتى عمر بن الخطاب لمثل ما أتى له أبا بكر، فرد عليه بقوله: «أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به»[42]، ثم دخل على

---

(39) السيرة، 2: 394 ـ 395.

(40) السابق: 395.

(41) السابق.

(42) السابق، 2: 396، وينظر الروض الأنف، 4: 97.

علي بن أبي طالب ومعه زوجه فاطمة، أمامها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها، فقال: «يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله... [فرد عليه بقوله]: ويحك يا أبا سفيان!! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه»[43].

ولما يئس أبو سفيان من علي، التفت إلى فاطمة راجياً أن تتوسط له عند أبيها بابنها الحسن، ولكنها أغلقت دونه باب الأمل، فاشتدت عليه الأمور، فعاد إلى علي طالباً مشورته ونصحه، فأمره بأن يجير بين الناس، ثم يلحق بأهله، فقام أبو سفيان في المسجد، فأجار بين الناس، ثم ركب بعيره وانطلق عائداً إلى مكة، فلما قدم على قريش أخبرهم بكل ما حصل من محاولات الوساطة، وبما أشار به عليه ابن أبي طالب من الإجارة، فعرفت قريش أن ذلك غير مجد شيئاً[44]، وتوقعت ردة فعل قوية تحدث اليوم أو غداً.

الاستعداد لفتح مكة:

بعد فشل محاولات أبي سفيان، بدأ الرسول يجهز لفتح مكة سراً، حيث أمر أهله بتجهيزه، دون أن يعلم أحداً من أقاربه، أو المسلمين بوجهته، حتى دخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي في حالة تجهيز للرسول، فسألها: إن كان الرسول أمرهم بذلك، فأشارت عليه بالاستعداد، فسألها: عن وجهته، فردت: بأنها لا تدري[45]، ولكن لم يلبث الرسول أن أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالتهيؤ، والجد في ذلك، وقال داعياً ربه أن يبقى ذلك سراً حتى دخول مكة على أهلها بغتة: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»[46]، وبدأ الناس في أخذ استعداداتهم لهذا الفتح الأكبر، وهم متفائلون بأن الله سيحقّق آمالهم، وينصرهم على أعدائهم، وقد تعالت أصوات التشجيع

---

(43) السابق.

(44) ينظر: السيرة، 2: 396 ـ 397، وينظر الروض الأنف: السابق.

(45) ينظر: السيرة، 2: 397.

(46) السابق.

من كل مكان، ومن ذلك ما قاله حسان في تحريض الناس على سرعة الاستعداد، مستغلاً نقض قريش للهدنة، ومذكراً بمصاب خزاعة في وقعة ماء الوتير، قال:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بني كعب تحز رقابها[47]

بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تجن ثيابها[48]

ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي سهيل بن عمرو وخزها وعقابها[49]

وصفوان عود حن من شفر استه فهذا أوان الحرب شد عصابها[50]

فلا تأمننا يابن أم مجالد إذا احتلبت صرفاً وأعصل نابها[51]

ولا تجزعوا منا فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها[52]

---

(47) في الديوان:

وغبنا فلم تشهد ببطحاء مكة رجال بني كعب تحز رقابها

ينظر شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط وتحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، (ط: 1، دار الأندلس، بيروت، 1966): 97.

(48) في الديوان:

بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم بحق وقتلى لم تحن ثيابها

يقصد بالرجال: قريشاً، ولم تجن ثيابها، أي لم تستر، يريد أنهم قتلوا ولم يدفنوا، ينظر السابق، والسيرة، 2: 398.

(49) في الديوان: (فيا ليت شعري)، وسهيل بن عمرو من بني عبد شمس القرشي، كان أحد أشراف قريش وسادتهم في الجاهلية، أسر يوم بدر كافراً، ثم أسلم وحسن إسلامه، ينظر ديوان حسان: 97.

(50) صفوان: هو صفوان بن أمية بن خلف القرشي، أحد أشراف قريش في الجاهلية، أسلم بعد وقعة حنين، والعود: الجمل المسن، والمعنى على الخيرة والتجربة، ينظر ديوان حسان: 98، والسيرة، السابق.

(51) ابن أم مجالد: عكرمة بن أبي جهل، وكان فارساً مقداماً، شديد العداوة للرسول في جاهليته، أسلم عام الفتح، وورد في الديوان: (إذا لقحت حرب وأعصل نابها)، وعصل الناب: اعوجاجه، ينظر ديوان حسان: 100، والسيرة، 2: 398.

(52) هذا البيت لا يوجد بالديوان، وبدله موجود:

ولو شهد البطحاء منا عصابة لهان علينا يوم ذاك ضرابها

ينظر ديوان حسان: 100، والسيرة، 2: 398.

حاطب وقريش:

وفي غمرة أخذ الناس استعدادهم لمداهمة قريش سراً، كتب حاطب بن أبي بلتعة[53] ينذر قريشاً بالذي أجمع عليه المسلمون[54]، وسلم كتابه لمولاة لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جعلاً مغرياً إن هي أوصلته قريشاً، فبالغت المرأة في إخفاء الكتاب بين جدائل شعرها، وخرجت قاصدة مكة، فأوحى الله إلى رسوله بما صنع حاطب، فبعث بعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وراء المرأة لكشف سر حاطب، فأدركاها عن قرب[55]، فاستنزلاها عن دابتها، ثم التمسوا الكتاب في رحلها، فلم يجدوا شيئاً، فقال لها علي: «إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ، ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب، أو لنكشفنك»[56]، فلما رأت الجد منهما قالت أعرضا: فاستدارا عنها، فأخرجت الكتاب من بين قرون شعرها، فرجعا به إلى الرسول، فاستدعى حاطباً وسأله عن فعلته، فرد بقوله: «يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت أمرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم»[57]، فطلب ابن الخطاب أن يضرب عنقه، بحجة أنه نافق، ولكن الرسول قال له: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر، يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت

---

(53) يوجد اختلاف في اسم أبي حاطب وجده وكنيته ونسبه وحلفه في العرب، شهد كثيراً من الغزوات، نزل فيه قرآن، سفر للرسول ولأبي بكر عند المقوقس، توفي عام ثلاثين هجرية بالمدينة، ينظر يوسف بن عبد الله عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البيجاوي، (ط: 1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، لا.ت)، 1: 312 وما بعدها.

(54) أورد بعض العلماء نص الكتاب الذي بعثه حاطب لقريش، ومنه: «أنه كان في الكتاب الذي كتبه حاطب: أن النبي محمداً قد نفر إما إليكم، وإما إلى غيركم، فعليكم الحذر»، وقيل غير ذلك، ينظر الروض الأنف، 4: 97.

(55) قال السهيلي: أدركاها في مكان يقال له: روضة خاخ، وقال الحموي: روضة خاخ، بخاءين، موضع بين الحرمين بالقرب من المدينة، ينظر الروض الأنف، 4: 97، ومعجم البلدان، 2: 335.

(56) ينظر السيرة، 2: 399.

(57) السابق.

لكم»[58]، وقد أنزل الله في فعلة حاطب هذه قرآناً يتلى[59].

في الطريق إلى مكة:

قرر الرسول الخروج بجيشه إلى مكة، فاستخلف على المدينة أبا رهم، كثلوم بن حصين الغفاري، وخرج في شهر رمضان عام ثمانية للهجرة، في قرابة عشرة آلاف من المسلمين، لم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار، خرج وهو صائم، وقد صام الناس لصيامه، غير أنه لما بلغ الكديد[60] أفطر، فأفطر الناس لفطره، ومضى في طريقه حتى نزل بمر الظهران[61]، «فسبعت سليم، وبعضهم قال ألفت سليم، وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام»[62].

إسلام أبي سفيان بن الحارث:

وفي هذه الأثناء لقي الرسول، بنيق العقاب[63]، وهو في طريقه إلى مكة، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فالتمسا منه الدخول في الإسلام، ولكن الرسول رفض، بحجة شدة إيذائهما له

---

(58) السيرة، السابق.

(59) هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ* إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ* لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 1 ـ 4].

(60) الكديد والكديد: موضع بالحجاز، على مسافة اثنين وأربعين ميلاً من مكة، ينظر معجم البلدان، 4: 442.

(61) مر الظهران: قرية بالقرب من مكة، والظهران واد ذو مياه وعمار، نسبت إليه هذه القرية، عن المصدر السابق، 4: 62 و5: 104.

(62) سبعت: بلغت سبعمائة، وألفت: بلغت ألفاً، ينظر السيرة، 2: 401.

(63) نيق العقاب: موضع بين مكة والمدينة، قرب الجحفة، ينظر معجم البلدان، 5: 333.

ولدينه، قائلاً لأم سلمة كلمته في شأنهما: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال[64]، فلما بلغهما رد الرسول، تجهّما وانقبضت نفساهما، وحلف أبو سفيان إن هو لم يأذن له ليأخذن ابنه، وكان معه بني له، وليذهبن في الأرض حتى يموتا جوعاً، وعطشاً، فعند ذلك رق لهما الرسول، وأذن لهما بمقابلته، فدخلا عليه، فأسلما، وأنشد أبو سفيان الحارث قوله في إسلامه، معتذراً عما مضى منه:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى واهتدي
هداني هاد غير نفسي ونالني ... مع الله من طردت كل مطرَّد[65]
أصد وأنأى جاهداً عن محمد ... وادعى (وإن لم أنتسب) من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فقل لثقيف لا أريد قتالها ... وقل لثقيف تلك غيري أوعدي
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان عن جرا لساني ولا يدي[66]
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... نزائع جاءت من سهام وسردد[67]

كما لقيه، وهو في طريقه إلى مكة، عمه العباس بن عبد المطلب بالجحفة[68]، وهو مهاجر بعياله بعيداً عن مكة، بعد أن كان مستقراً بها على

---

(64) يعني بهتك العرض الهجاء اللاذع، وأما قوله: فهو الذي قال لي بمكة ما قال، فهو إشارة إلي قول عبد الله له بمكة لما أعلن دعوته: «والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء، فتعرج فيه، وأنا أنظر، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أن الله قد أرسلك»، ينظر الروض الأنف، 4: 98 ـ 99، والسيرة، 2: 400.

(65) في رواية: (دلني على الله)، وهو أوضح، ينظر السيرة، 2: 401.

(66) جرا: جراء، وحذف الهمزة للوزن.

(67) سهام: اسم موضع باليمامة، وسردد: موضع من أرض زبيد يلي وادي سهام، فهما موضعان متجاوران، ينظر معجم البلدان، 3: 209 و288، والسيرة، 2: 401.

(68) الحجحفة: قرية كبيرة على طريق المدينة، على أربع مراحل من مكة، ينظر معجم البلدان، 2: 111.

سقايته، والرسول عنه راض، فانضم إلى جيش الرسول.

سار الرسول بالجيش كل هذه المسافة، ووقعت له في الطريق كل هذه الأحداث، وقريش لا تزال غير عالمة بخروجه، وإن كان يراودها شك في أن محمداً لن يفوت لهم نقضهم للعهد، إلا أن الأخبار عميت عنهم، فلم يعلموا شيئاً عن مسيرة الجيش حتى الآن، فكانوا يرسلون العيون بين الحين والآخر، وفي تلك الليالي التي قضاها الرسول في الطريق إلى مكة، خرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، علهم يعرفون شيئاً.

إسلام أبي سفيان بن حرب:

فلما نزل الجيش بمر الظهران، قال العباس: «قلت: واصباح قريش والله، لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»[69]، وكان العباس يحب أن يكون في الأمر يد لقريش عند النبي ﷺ، حتى لا يدخل عليهم مكة عنوة، فيكون في ذلك إذلالهم بين العرب مدى الدهر، وهو لذلك حاول أن يعلمهم، حتى يبادروا بتدارك الموقف، فخرج على بغلةِ الرسول البيضاء حتى بلغ الأراك، يقول: «لعلي أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة»[70]، وبينما هو سائر يلتمس ما خرج إليه، إذ سمع أبا سفيان يقول لبديل بن ورقاء: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً، فرد عليه بديل: بأن هذه نيران خزاعة، تستعد لثأرها، فقال أبو سفيان: «خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها»[71]، وقد عرف العباس صوت أبي سفيان من خلال الحوار الجاري بينه وبين ابن ورقاء، فناداه، وأفهمه

(69) السيرة، 2: 402.

(70) السابق.

(71) ينظر السابق.

أن الرسول قادم في جيش عظيم إلى مكة، وأنه من الأسلم له ولقريش ألا يرفعوا راية العصيان، واستطاع إقناعه بالذهاب معه إلى الرسول ليستأمنه له، فرجع صاحبا أبي سفيان إلى مكة لينذراها، وركب هو وراء العباس، فجاء به إلى الرسول، فبادره ابن الخطاب قائلاً: «يا رسول الله هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه»[72]، ولم يرض هذا القول العباس، فحصلت بينه وبين وعمر مشادة أمام الرسول بشأن أبي سفيان، أنهاها الرسول بقوله للعباس: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به»[73]، وفي الصباح غدا به إلى الرسول، فلما رآه، قال: «ويحك يا أبا سفيان!! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله؟... ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»[74]، فكان رده: أنه مؤمن بالأولى، وأنه لا يزال في النفس شيء من الثانية، فحثه العباس على إعلان إسلامه، فأسلم، فقال العباس للرسول ﷺ: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً»[75]، فقال الرسول قولته المشهورة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق دونه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[76].

ولإدخال الرعب في قلوب المشركين، أمر الرسول العباس بإيقاف أبي سفيان في طريق الجيش، لينظر قوة المسلمين بنفسه، ثم يخبر بها قريشاً، قائلاً: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي، عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها»[77]، وأوقفه حيث أمره الرسول أن يوقفه، وصارت تمر به كتائب

---

(72) السابق، 2: 403.

(73) السابق.

(74) السابق، وعن السهيلي أن أبا سفيان قال للنبي حين عرض عليه الإسلام: كيف أصنع بالعزى؟، فسمعه عمر من وراء القبة فقال له: نخرا عليها، فقال: ويحك يا عمر!! دعني مع ابن عمي، فإياه أكلم، ينظر الروض الأنف، 4: 99.

(75) السيرة، السابق.

(76) السابق.

(77) السابق، وينظر الروض الأنف، 4: 99.

الجيش، وكلما مرت كتيبة سأل عنها، فيجيبه العباس بأنها: قبيلة بني فلان، وهو يقول: مالي ولبني فلان، حتى مر الرسول في كتيبته الخضراء[78]، فسأل عنها، فأخبره العباس بأنها كتيبة الرسول في المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان، والرعب يملأ قلبه: «ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك أخيك الغداة عظيماً»[79].

ثم رجع أبو سفيان مسرعاً إلى قومه، فصرخ فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: «اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم[80]، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[81]، فأسرع الناس الخطى إلى دورهم وإلى المسجد.

إسلام أبي قحافة:

نقل عن أسماء بنت أبي بكر: أن أبا قحافة لما سمع بوقوف النبي ﷺ بذي طوى[82]، طلب من ابنة له من أصغر ولده أن تظهر به على جبل أبي قبيس، وكان قد كف بصره، فلما أشرفت به على الجبل، سألها عما ترى، فأجابته بأنها ترى سواداً عظيماً مجتمعاً، ورجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد، مقبلاً ومدبراً، فقال: تلك الخيل، وسائس الجيش، ثم قالت له: قد انتشر

---

(78) إنما سميت بالخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، حتى أن المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق، ينظر السيرة، 2: 404.

(79) السابق، وينظر الروض الأنف، 4: 99.

(80) الحميت: زق السمن، الدسم: الكثير الودك، والأحمس: الشديد اللحم، والكلام كناية عن شدة السمن، وطليعة القوم: رائدهم، وأول ما يطلع من الجيش، ومقدمته، ينظر الروض، السابق، والمعجم الوسيط، مواد: حمت، دسم، حمس، طلع.

(81) السيرة، 2: 404 ـ 405.

(82) ذو طوى: اسم موضع على مشارف مكة، ينظر معجم البلدان، 4: 45.

السواد، فطلب منها أن ترجعه بسرعة إلى بيته، ولما دخل الرسول المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه الرسول قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»، قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، ثم أجلسه الرسول بين يديه، ومسح صدره، وقال له: أسلم، فأسلم[83].

دخول المسلمين مكة:

كانت ذو طوى مركز تجمع جيش المسلمين، ثم فرقه الرسول على مداخل مكة، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل بمن معه من الناس من كدى[84]، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل بمن معه من كداء، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بمن معه من الليط[85]، وأمر أبا عبيدة أن يسير بين يديه، ودخل الرسول من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، وهناك ضربت له قبة ليجلس فيها.

وكان المهاجرون دون شك يخشون على أهاليهم وذويهم أن يتضرروا من دخول جيش المسلمين مكة، خاصة وأن هناك من أظهر استعداده للتقتيل والتنكيل، مثل ما حدث من القائد سعد بن عبادة، إذ ورد أنه سمع عنه قوله، عندما وجه داخلاً:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة[86]

وروى أن ضرار بن الخطاب لما سمع قول سعد هذا، استعطف النبي ﷺ على قريش بقوله:

يا نبي الهدى إليك لجاحي قريش ولات حين لَجاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأ رض وعاداهم إلٰه السماءِ

(83) ينظر السيرة، 2: 406، والروض الأنف، السابق.

(84) كدى، بضم الكاف، وتنوين الدال: بأسفل مكة عند ذي طوى، بقرب شعب الشافعيين، وأما كداء الممدودة فهي بأعلى مكة عند المحصب، ينظر معجم البلدان، 4: 439.

(85) الليط: موضع أسفل مكة، ينظر السابق، 5: 28.

(86) السيرة، السابق.

والتقت حلقتا البطان على القـ ـوم ونودوا بالصيلم الصلعاء[87]
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعوّاء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش بقعة القاع في أكف الإماء[88]

وقال قائل، لما سمع مقالة سعد: «يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة»[89] فاستجاب الرسول لهذه الملاحظات، وأمر علياً أن يدرك سعداً ويأخذ منه الراية، فيكون هو من يدخل بها مكة.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن قريشاً كلها سلمت بدخول جيش المسلمين مكة، ما عدا نفرٍ قليلٍ من شجعان قريش، ممن لم يطيقوا ذلك، منهم: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمر، وحماس بن قيس بن خالد، أخو بني بكر، إذ جمعوا حولهم ناساً بالخندمة[90]، في محاولة للتصدي لبعض أجنحة الجيش.

ومما يروى عن حماس أنه كان يعد سلاحه، ويصلح منه قبل دخول الرسول مكة، وقد سألته امرأته عن ذلك، فقال: بأنه يعده لمحمد وأصحابه، فنهرته بأنه لن يرد اليوم محمداً وأصحابه شيء، فقال لها: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم ارتجز قائلاً:

إن يقبلوا اليوم فمالي علة هذا سلاح كامل وألة
وذو غرارين سريع السلة[91]

---

(87) الصيلم: الداهية العظيمة، والسيف، الصلعاء: كل براق أملس، والسنان المجلو، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: صلم، صلع.

(88) الروض الأنف، 4: 101.

(89) السيرة، السابق.

(90) الخندمة: اسم جبل بمكة، ينظر معجم البلدان، 2: 392.

(91) السيرة، 2: 407، والألة: الحربة العريضة، الحادة، ينظر المعجم الوسيط، مادة: أل.

وبعدها حضر وقعة الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوشوهم شيئاً من قتال، فقتل نفر من أتباع خالد، ممن شذوا عنه، فسلكوا طريقاً آخر، وكان ممن قتل: خنيس بن خالد بن أصرم، فجعله كرز بن جابر بن فهر بين رجليه، وقاتل عنه حتى قتل هو الآخر، وكان حينذاك يرتجز:

قد علمت صفراء من بني فهر نقية الوجه نقية الصدر
لأضربن اليوم عن أبي صخر[92]

وكنية خنيس: أبو صخر، وهو من خزاعة، وإلى جانب ذلك جرح بعض من أتباع خالد، كما قتل عدد يزيد على العشرة من المشركين، وجرح آخرون، ثم انهزموا، فرجع حماس منهزماً إلى زوجه، طالباً منها أن تغلق عليه بابه، فسخرت منه قائلة: أين ما كنت تقول؟، فأنشد:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمه واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه[93]

وصية الرسول لأمرائه يوم الفتح:

أوصى الرسول أمراءه يوم الفتح ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، سوى نفر قليل سماهم بأسمائهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله بن سعد، أخو بني عامر بن لؤي، وعبد الله بن خطل، من بني تيم بن غالب، وقينتاه: فرتني وصاحبتها، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصي، ومقيس ابن حبابة، ومولاة لبعض بني عبد المطلب، اسمها: سارة، وعكرمة بن أبي جهل.

---

(92) السيرة، 2: 408.

(93) السيرة، السابق، وينظر معجم البلدان، 2: 393، والنهيت: صوت الأسد دون الزئير، وتتابع النفس من الإعياء، ينظر المعجم الوسيط، مادة: نهت.

وكان لكل واحد من هؤلاء من الأسباب ما يهريق دمه، ولم يأمر الرسول بقتلهم اعتباطاً، فعبد الله بن سعد، كان يكتب الوحي للرسول، فارتد مشركاً، ورجع لقريش، فلما سمع بحكم رسول الله فيه، احتمى بعثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاعة، فغيبه، حتى اطمأن الناس بمكة، ثم استأمن له الرسول، فأمنه بعد أن سكت طويلاً، لعل أن يقوم إليه أحد فيضرب عنقه، ثم أسلم وحسن إسلامه، وولاه عمر ثم عثمان من بعده بعض أعمال الدولة، أما ابن خطل فبعثه الرسول جامعاً للصدقات، فاعتدى على غلام مسلم لرجل من الأنصار كان مصاحباً له، فقتله، ولم يقتله في كبيرة، غير أنه أمر الغلام بأن يجهز له الطعام، فنام ثم استيقظ، والغلام لم يصنع شيئاً، فقتله، ثم ارتد مشركاً، فظفر به فقتل، وقد اشترك في قتله: سعيد بن حريت، وأبو برزة الأسلمي، أما قينتاه، فكانتا تغنيان بهجاء الرسول، فأمر بقتلهما معه، فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى، وبقيت مستخفية حتى استؤمن لها عند رسول الله فيما بعد، فأمنها، وكان الحويرث ممن يؤذيه بمكة، في نفسه وأهله، فهو من نخس بفاطمة وأم كلثوم وهما في طريقهما من مكة إلى المدينة مهاجرتان، فرمي بهما إلى الأرض، أما مقيس فإنما أمر بقتله قصاصاً وارتداداً، لأنه قتل رجلاً من الأنصار، كان قد قتل أخاه خطأ، ورجوعه مشركاً إلى قريش، وقد قتله رجل من قومه اسمه: نميلة بن عبد الله، فقالت أخته في قتله:

لعمري لقد أخزى نميلة رهطه وفجع أضياف الشتاء بمقيس

فلله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تخرس[94]

وسارة كانت تؤذي النبي بمكة، وقد استؤمن لها، فأمنها، وأما عكرمة فكان إيذاؤه للنبي ظاهراً، ولما سمع بأمر قتله، هرب إلى اليمن، وكانت امرأته، أم حكيم بنت الحارث بن هشام، قد أسلمت، فاستأمنت له الرسول فأمنه، وخرجت في طلبه إلى اليمن، وأحضرته إلى الرسول فأسلم.

---

(94) السيرة، 2: 410 ـ 411، وتخريس النفساء: أن يعمل لها طعام الخرس، وهو الطعام الخاص الذي يصنع للنافس، ينظر المعجم الوسيط، مادة: خرس.

إجارة أم هانئ:

هي أم هانئ بنت أبي طالب، وكان من أمرها أن أجارت اثنين من أحمائها من بني مخزوم[95]، فسمع بهما أخوها علي بن أبي طالب فحلف ليقتلنهما، ودخل عليها بيتها لهذا الغرض، فأغلقت دونهما باب البيت، وأسرعت إلى النبي وهو بأعلى مكة، قالت: «فوجدته يغتسل من جفنة، إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل، أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي، فقال: مرحباً، وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك؟»[96]، فأخبرته خبر الرجلين، وخبر علي معهما، فقال: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما»[97].

طواف الرسول بالبيت:

لما اطمأن الناس بمكة، وهدأت ثائرة أهلها، طاف النبي بالبيت سبعاً، وهو على راحلته، يستلم الركن بمحجن كان في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ووقف بباب الكعبة، وكان الناس قد اجتمعوا له في المسجد، فخطب فيهم[98] ثم أردف خطبته بمقولته المشهورة: «يا معشر

---

(95) قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، ينظر: السيرة، 2: 411.

(96) السابق، 2: 411.

(97) السابق.

(98) هي خطبته المشهورة التي يقول فيها: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مؤثرة، أو دم، أو مال، يدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، السيرة، 2: 412، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[99].

طمس الصور وتكسير الأصنام:

ثم طاف الرسول بالبيت فرأى فيه صوراً للملائكة، والأنبياء، وغيرهم، وكان مما رآه صورة سيدنا إبراهيم عليه السلام، في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: «قاتلهم الله!! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[100]، ثم أمر بتلك الصور فطمست.

وطاف حول الكعبة، يوم فتح مكة، وهو على راحلته، وحول الكعبة أصنام لمختلف القبائل، تعبد من دون الله، فجعل كلما مر على صنم أشار إليه بقضيب كان في يده، قائلاً: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»[101]، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى أتى عليها كلها، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا[102]

من أحداث يوم الفتح:

وقعت في يوم فتح مكة أحداث متعددة لها عبرة، ودلالة خاصة على سماحة الإسلام، وعظمته، نذكر منها:

1 ـ **إسلام عتاب بن أسيد، والحارث بن هشام**، بسبب ما حدث من أنهما تقولا في الإسلام حينما كانا جالسين مع أبي سفيان بن حرب بفناء الكعبة، لما أمر النبي بلالاً برفع صوته بالآذان، إذ قال عتاب ساخراً:

---

(99) السيرة، 2: 412.

(100) السيرة، 2: 413.

(101) السابق، 2: 417.

(102) السابق.

«لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه»، وقال الحارث مشككاً في نبوّته ﷺ: «أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته»[103]، أما أبو سفيان فظل ساكتاً، خائفاً، وقد عبر عن خوفه بقوله: «لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحجارة»[104]، وهم في هذه المحاورة، إذ خرج عليهم النبي فأخبرهم بأنه علم بما دار بينهم من حديث، وذكر لهم ما قالوه عن الآذان وعنه، فأسلم عتاب والحارث من فورهما، معترفين برسالته، مقرين بأنه يوحى إليه، لا لشيء إلا لكونهما متأكدين أنه لم يطلع أحد على ما علقا به، وإنما هو الوحي.

2 ـ **دفع الرسول لديات بعض القتلى**، الذين قتلوا بالكعبة يوم الفتح، وكان أول قتيل واداه: جندب بن الأكوع بمائة ناقة، وقد قتلته بنو كعب[105]، كما وادى ابن الأثوع الهذلي الذي قتله خراش بن أمية الخزاعي، في ثأر بطلهم أحمر بأسا، الذي قتله هذا الهذلي غيلة في غزوة لهم إلى بني خزاعة، وقد ساء الرسول قتل خزاعة للهذيل غيلة أيضاً في مكة، فوادى القتيل، وأمرهم بعدم العودة للقتل[106].

3 ـ **تسمية خراش بن أمية بالقتال**، لأنه قتل ابن الأثوع الهذلي في الحرم، ذلك أن ابن الأثوع هو الذي قتل أحمر بأسا، فلما كان غداة يوم الفتح

---

(103) السابق، 2: 13.

(104) السابق.

(105) السابق، 2: 416. السابق 2: 415 ـ 416.

(106) إذ قام فيهن خطيباً، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ألا ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله، ولم يحللها لكم.

يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»، السيرة، 2: 415ـ 416.

دخل ابن الأثوع مكة وهو مشرك، يستطلع أحوال الناس بعد الفتح، فرآه جماعة من بني خزاعة فعرفوه، فأحاطوا به إلى جنب جدار من جدر مكة، يسألونه إن كان هو قاتل أحمر، فأجابهم بنعم، مرتاباً في تساؤلهم، وهم في هذا الحديث، إذ أقبل خراش متقلداً سيفه، فصاح في الناس: أن خلوا عن الرجل، فظنوا أنه يريد تخليصه من الزحام الذي حاصره به الخزاعيون إلى جنب الجدار، فأفرج الناس عنه، فحمل عليه خراش بالسيف في بطنه، «فوالله لكأني أنظر إليه وحشوته تسيل من بطنه، وإن عينيه لترنقان في رأسه، وهو يقول: أقد فعلتموها يا معشر خزاعة؟ حتى انجعف فوقع»[107]، فلما بلغ رسول الله ما صنع خراش قال يعيبه: «إن خراشاً لقتال»[108].

4 ـ **تخوف الأنصار من بقاء الرسول في مكة**، ذلك أن الرسول حين الفتح قام على الصفا يدعو الله، وقد أحاطت به الأنصار، وكان مما جرى بينهم من الأحاديث: قولهم: أترى الرسول إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه سألهم: «ماذا قلتم»، فقالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه بالهواجس التي دارت في نفوسهم، فقال: «معاذ الله!! المحيا محياكم، والممات مماتكم»[109].

5 ـ **محاولة فضالة بن عمير الليثي قتل الرسول** وهو يطوف بالكعبة عام الفتح، ولما دنا منه، قال الرسول: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فتبسم النبي ﷺ، قائلاً: استغفر الله، ثم وضع يده على صدر فضالة، فسكن قلبه، فكان بعد ذلك يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه»[110]، ثم رجع فضالة إلى أهله، فمر بامرأة

---

(107) السابق، 2: 415.

(108) السابق.

(109) السابق، 2: 416.

(110) السابق، 2: 417.

كان يحادثها، فدعته إلى الحديث، فامتنع، وأنشد يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لوما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام[111]

6 ـ **إسلام صفوان بن أمية** يوم الفتح، بعد أن قرر الهجرة، هرباً من النبي ﷺ، ظناً منه أنه قاتله لا محالة، فخرج متخفياً يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فعلم به عمير بن وهب، فاستأمن له النبي، فأمنه، ثم استوهبه علامة يعرف بها صفوان صدق هذا الأمان، فوهبه عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير مسرعاً حتى أدركه وهو يستعد لركوب البحر، فناداه: «يا صفوان، فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من الرسول قد جئتك به»[112]، فرجع معه حتى وقف على النبي ﷺ، فقال: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر، ثم لم يلبث أن أسلم، وكانت قد أسلمت قبله زوجته (فاختة) بنت الوليد، فأقرهما الرسول على زواجهما.

7 ـ **إسلام الشاعر عبد الله بن الزبعري**، بعد أن خاض في الكيد للإسلام ما شاء له أن يفعل، وكان سبب إسلامه، فيما يروى عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، أن حساناً رماه ببيت واحد من الشعر، وهو بنجران ما زاد عليه، وهو قوله:

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه ... نجران في عيش أحذ لئيم[113]

فلما بلغ هذا البيت مسامع ابن الزبعري خرج إلى الرسول فأسلم، وقال حين أسلم:

---

(111) السيرة، السابق.

(112) السيرة، 2: 418.

(113) السيرة، 2: 418، هذا البيت لا يوجد في ديوان حسان.

يـا رسـول الـمـلـيـك إن لـسـانـي راتـق مـا فـتـقـت إذ أنـا بـور[114]
إذ أباري الشيطان في سنن الغي ومـن مـال مـيـلـه مـثـبـور
آمـن الـلـحـم والـعـظـام لـربـي ثـم قـلـبـي الـشـهـيـد أنـت الـنـذيـر
إنّـنـي عـنـك زاجـر ثَـمَّ حـيّـاً مـن لـؤي وكـلـهـم مـغـرور[115]

وقال ابن الزبعري أيضاً حين أسلم، يعتذر عما كان بدر منه في جاهليته، ويشيد بالتعاليم الإسلامية، والأخلاق النبوية الرفيعة:

مـنـع الـرقـاد بـلابـل وهـمـوم والـلـيـل مـعـتـلـج الـرواق بـهـيـم
مـمـا أتـانـي أن أحـمـد لامـنـي فـيـه فـبـت كـأنـنـي مـحـمـوم
يا خير من حملت على أوصالها عـيـرانـة سـرح الـيـديـن غـشـوم[116]
إنـي لـمـعـتـذر إلـيـك مـن الـذي أسـديـت إذ أنـا فـي الـضـلال أهـيـم
أيـام تـأمـرنـي بـأغـوى خـطـة سـهـم وتـأمـرنـي بـهـا مـخـزوم
وأمـد أسـبـاب الـردى ويـقـودنـي أمـر الـغـواة وأمـرهـم مـشـؤوم
فـالـيـوم آمـن بـالـنـبـي مـحـمـد قـلـبـي ومـخـطـئ هـذه مـحـروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعـت أواصـر بـيـنـنـا وحـلـوم
فـاغـفـر فـدىً لـك والـداي كـلاهـمـا زلـلـي فـإنـك راحـم مـرحـوم
وعـلـيـك مـن عـلـم الـمـلـيـك عـلامـة نـور أغـر وخـاتـم مـخـتـوم
أعـطـاك بـعـد مـحـبـة بـرهـانـه شـرفـاً وبـرهـان الإلٰـه عـظـيـم
ولـقـد شـهـدت بـأن دينـك صـادق حـق وأنـك فـي الـعـبـاد جـسـيـم
والله يـشـهـد أن أحـمـد مـصـطـفـى مـسـتـقـبـل فـي الـصـالـحـيـن كـريـم

---

(114) الراتق: الساد، ومنه رتقت الشيء إذا سددته، وفتق: شق وفتح، وبور: هالك، ومثلها مثبور في البيت التالي، ينظر السابق، 2: 419 هامش، والمعجم الوسيط، مواد: رتق، فتق، بور، ثبر.

(115) السيرة، 2: 419.

(116) الأوصال: المقصود به الظهر، عيرانة: الناقة، سرح: خفيفة، غشوم: قوية على السير، ينظر المعجم الوسيط، مواد: وصل، عبر، سرح، غشم.

قـرم عـلا بـنـيـانـه مـن هـاشـم فـرع تـمـكـن فـي الـذرا وأروم[117]

8 ـ **إسلام عباس بن مرداس**: يروى أنه كان لمرداس والد عباس وثن يعبده، يقال له: ضمار، منحوت من حجر، فلما حضرت مرداس الوفاة أوصى ابنه عباساً أن يعبد الوثن ضمار، بحجة أنه ينفعه ويضره، فنفذ عباس وصية والده، وبينما هو يوماً عند هذا الوثن يعبده إذ سمع من جوفه منادياً يقول:

قـل لـلـقـبـائـل مـن سـلـيـم كـلـهـا أودى ضـمـار وعـاش أهـل الـمـسـجـد
إن الـذي ورث الـنـبـوة والـهـدى بـعـد ابـن مـريـم مـن قـريـش مـهـتـدي
أودى ضـمـار وكـان يـعـبـد مـرة قـبـل الـكـتـاب إلـى الـنـبـي مـحـمـد[118]

فحرق عباس الوثن، ولحق بالرسول فأسلم.

9 ـ **بقاء الشاعر المخزومي في مكة**، بقي الشاعر هبيرة بن أبي وهب المخزومي مقيماً بمكة، على شركه، حتى مات بها كافراً، وقد أسلمت زوجه أم هانئ: هند بنت أبي طالب، ولما بلغه إسلامها قال، يعاتبها ويلومها:

أشـاقـتـك هـنـد أم أتـاك سـؤالـهـا كـذاك الـنـوى أسـبـابـهـا وانـفـتـالـهـا
وقـد أرقـت فـي رأس حـصـن مـمـنـع بـنـجـران يـسـري بـعـد لـيـل خـيـالـهـا[119]
وعـاذلـة هـبـت بـلـيـل تـلـومـنـي وتـعـذلـنـي بـالـلـيـل ضـل ضـلالـهـا
وتـزعـم أنـي إن أطـعـت عـشـيـرتـي سـأردى وهـل يـردين إلا زيـالـهـا[120]
فـإنـي لـمـن قـوم إذا جـد جـدهـم عـلـى أي حـال أصـبـح الـيـوم حـالـهـا

---

(117) السيرة، 2: 420، وقال ابن هشام: بعض أهل العلم بنكرها له، والقرم: السيد، وأصله الفحل من الإبل، الذرا: الأعالي، الأروم: الأصول، ينظر المعجم الوسيط، مواد: قرم، ذرو، أرم.

(118) السيرة، 2: 427.

(119) أرقت: منعت النوم، ونجران: بلد باليمن، ينظر المعجم الوسيط، مادة: أرق، ومعجم البلدان، 5: 266.

(120) سأردى: سأهلك، زيالها: ذهابها، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: ردى، زال.

وإني لحام من وراء عشيرتي إذا كان من تحت العوالي مجالها

وصارت بأيديها السيوف كأنها مخاريق ولدان ومنها ظلالها[121]

وإني لأقلى الحاسدين وفعلهم على الله رزقي نفسه وعيالها[122]

وإن كلام المرء في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

فإن كنت قد تابعت دين محمد وعطفت الأرحام منك حبالها

فكوني على أعلى سحيق بهضبة ململمة غبراء يبس بلالها[123]

10 ـ **ومن أحاديث الفتح**: ما روي عن أبي حدرد الأسلمي، أن فتى من بني جذيمة، ممن أمر خالد بتكتيفهم، كان قد جمعت يداه إلى عنقه بحبل، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه، فناداني، فأتيته، فطلب مني أن أقوده إلى أولئك النسوة، لقضاء حاجة له إليهن، ثم نفعل به بعد ذلك ما نشاء، فقدته إليهن رأفة به، فلما وقف عليهن نظر إلى واحدة منهن، وقال: «اسلمي حبيش، على نفذ[124] من العيش»، ثم أنشد يقول:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلبة أو ألفيتكم بالخوانق[125]

ألم يك أهلاً أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق[126]

فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا معاً أثيبي بود قبل إحدى الصفائق[127]

---

(121) المخاريق جمع مخراق: قطعة من القماش تلف، ويلعب بها الصبيان بمثابة السيوف، ينظر السابق، مادة: خرق.

(122) قلاه: كرهه، ينظر السابق، مادة: قلي.

(123) السيرة، 2: 420 ـ 421، والسحيق: البعيد، والهضبة: الأرض المرتفعة، ململمة: مستديرة، ينظر، السابق، هامش.

(124) لعلها: نفد، بالمهملة، لأنها أنسب للمعنى.

(125) حلبة: واد بتهامة، أعلاه لذهيل وأسفله لكنانة، وقيل: (حلية) بالمثناة، والخوانق: موضع بالقرب من أجا، ينظر معجم البلدان: 2: 290، و399.

(126) الإدلاج: السير في الليل، والودائق جمع وديقة: شدة حر الظهيرة، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: دلج، ودق.

(127) الصفائق جمع صفيقة: حوادث الدهر، ومصائبه، ينظر السابق، مادة: صفق.

أثيبي بود قبل أن تشحط النوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فإني لا ضيعت سر أمانة ... ولا راق عيني عنك بعدك رائق

سوى أن ما نال العشيرة شاغل ... عن الود إلا أن يكون التوامق[128]

فردت عليه بقولها: «وأنت، فحييت سبعاً وعشراً وتراً وثمانياً تترى»، ثم أرجعته فضربت عنقه، وهي تنظر، فقامت إليه، فأكبت على وجهه، فما زالت تقبله حتى ماتت عنده[129].

الشعر وفتح مكة:

جاشت خواطر الشعراء الذين شهدوا الفتح، بشعر كثير، عبروا فيه عن مشاعرهم، وأحاسيسهم بهذا الفتح المبين، الذي أعلى راية الإسلام، ومكن للمسلمين في الأرض، فرفعوا الظلم، ونشروا العدل، وبنوا دولة الإسلام على أسس ديموقراطية سمحة، وفيما يلي نستعرض نماذج مما قيل في هذه المناسبة من شعر:

فمن ذلك قول حسان بن ثابت يوم الفتح:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء[130]

ديار من بني الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماء[131]

وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء[132]

فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء

---

(128) السيرة، 2: 433 ـ 434، والتوامق: الحب، عن السابق.

(129) السابق: 434.

(130) عفت: انمحت آثارها، وذات الأصابع، والجواء، وعذراء: أسماء أماكن بالشام كان يتردد عليها الشاعر زمن الغساسنة، ينظر، المعجم الوسيط، مادة: عفا، والمعجم البلدان، 2: 174، و4: 91، والسيرة، 2: 421.

(131) الحسحاس: الجواد الكريم، والمقصود هنا: حي من بني أسد، والرامس: الرياح المثيرة للأتربة، السماء: المطر، ينظر السيرة، 2: 422، والمعجم الوسيط، مادتي: رمس، سما.

(132) النعم: أكثر ما يقع على الإبل، والشاء: الغنم، للذكر والأنثى، ينظر السيرة، السابق.

لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

كأن خبيئةً من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء[133]

إذا ما الأشربات ذكرن يوماً ... فهن لطيِّب الراح الفداء[134]

نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء[135]

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء[136]

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء[137]

ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء[138]

تظل جيادنا متمطرات ... تلطِّمهنَّ بالخمر النساء[139]

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعزُّ الله فيه من يشاء[140]

---

(133) في الديوان: (كأن سبيئة)، والسبيئة، أو الخبيئة: الخمر، وبيت رأس: اسم لقريتين ينسب إليهما الخمر، إحداهما بالشام، والأخرى بسوريا، ولعله يقصد هنا: موضع بالأردن شهر بالخمر الجيد، وبعد هذا البيت في الديوان، قوله:

على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره الجناء

ينظر ديوان حسان: 59، ومعجم البلدان، 1: 520.

(134) الأشربات جمع أشربة، وأشربة جمع شراب، يريد أن خمر بيت رأس أحسن الخمور، ينظر السيرة، 2: 422.

(135) نوليها الملامة: نوجه إليها اللوم، المغث: الضرب باليد، اللحاء: السباب، ينظر السيرة، السابق، والمعجم الوسيط، مادتي: مغث، لحا.

(136) روي أن حساناً هجم على فتية يشربون الخمر، فعيرهم بذلك، فقالوا: يا أبا الوليد إنا لنهم بتركها فيثبطنا عن ذلك قولك، وذكروا هذا البيت، فقال حسان هذا شيء قلته في الجاهلية، ووالله ما شربتها منذ أسلمت، ينظر الاستيعاب، 1: 344.

(137) النقع: الغبار، وكداء: ثنية بأعلى مكة، ينظر المعجم الوسيط، مادة: نقع، ومعجم البلدان، 4: 439.

(138) في الديوان: (مصعدات بدل مصغيات)، العنان: اللجام، مصغيات: مواثل، الأسل: الرماح، الظماء: العطاش، ينظر ديوان حسان: 60.

(139) متمطرات: متتباعات في الدخول، يلطمهن: يردهن، الخمر: أقنعة النساء، وقيل: إن الرسول تبسم لهذا المشهد، ينظر السيرة، 2: 423، والروض الأنف، 4: 118.

(140) في الديوان: (يعين بدلاً من يعز)، ينظر الديوان: 61.

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء

وقال الله قد سيرت جندا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء[141]

بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء[142]

هجوت محمداً وأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء[143]

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء[144]

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء[145]

---

(141) في الديوان:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء

أبو سفيان: هو الشاعر المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان صديقاً للنبي قبل البعثة، ثم انقلب عليه بعدها فهجاه، وناصبه أشد العداوة، وأسلم عام الفتح وحسن إسلامه، والمغلغلة: الرسالة ترسل من بلد إلى آخر، والمجوف والنخب: الخالي، الفارغ، ينظر ديوان حسان: 63، والروض الأنف، 4: 98 ـ 99.

(142) يريد أن سيوف الأنصار جعلته عبداً ذليلاً يوم فتح مكة، وأن سادة بني عبد الدار صاروا كالإيماء في المذلة والهوان، ينظر السيرة، 2: 423، وديوان حسان: 63.

(143) في الاستيعاب: (هجوت مطهراً بدلاً من مباركاً)، ينظر الاستيعاب، 1: 343.

(144) في الديوان: (فمن يهجو)، ولعل الأصوب رواية السيرة، لمناسبتها للمعنى، ينظر الديوان: 64، والسيرة، 2: 424.

(145) في الاستيعاب: (فإن أبي ووالدتي بدلاً من والده)، ينظر الاستيعاب، 1: 344.

لـســانـي صــارم لا عـيـب فـيـه وبـحـري لا تـكـدره الـدلاء[146]

وقال أنس بن زنيم الديلي يعتذر للرسول مما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي:

أأنـت الـذي تـهـدى مـعـد بـأمـره بـل الله يـهـديـهـم وقـال أشـهـد
وما حملت من ناقة فوق رحلها أبـر وأوفـى ذمـة مـن مـحـمـد
أحـثَّ عـلـى خـيـر وأسـبـغ نـائـلاً إذا راح كالسيف الصقيل المهند
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابق المتجرد[147]
تـعـلـم رسـول الله أنـك مـدركـي وأن وعـيـداً مـنـك كـالأخـذ بـالـيـد
تـعـلـم رسـول الله أنـك قـادر على كل صرم متهمين ومنجد[148]
تعلم بأن الركب ركب عويمر هم الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبوا رسول الله أني هجوته فلا حملت سوطي إلي إذن يدي
سوى أنني قد قلت ويل أم فتية أصيبوا بنحس لا بطلق وأسعد
أصابهم من لم يكن لدمائهم كفاء فعزت عبرتي وتبلدي
فإنك قد أخفرت إن كنت ساعياً بعبد بن عبد الله وابنة مهود
ذويب وكلثوم وسلمى تتابعوا جميعاً فإلا تدمع العين أكمد
وسلمى وسلمى ليس حي كمثله وإخوته وهل ملوك كأعبد؟

---

(146) في الديوان: توجد ثلاثة أبيان قبل هذا البيت لم ترد في السيرة، وهي:

فإما تثقفن بني لؤي جذيمة إن قتلهم شفاء
أولئك معشر نصروا علينا ففي أظفارنا منهم دماء
وحلف الحارث بن أبي ضرار وحلف قريظة منا براء

بنظر ديوان حسان: 65، والسيرة، 2: 421 ـ 424.

(147) برد الخال: من رفيع ثياب برود اليمن، والسابق المتجرد: الفرس الذي يتجرد من الخيل فيسبقها، ينظر السيرة، 2: 424.

(148) الصرم: البيوت المجتمعة، المتهمين: ساكين تهامة، وهو ما انخفض من الأرض، والمنجدين: من يسكن النجد، وهو المرتفع، ينظر السيرة، السابق.

فـإنـي لا ديـنـاً فـتـقـت ولا دمـاً هرقت تبين عالم الحق واقصد[149]

وقال بديل بن عبد مناف بن أم أصرم في الرد على ابن زنيم:

بـكـى أنـس رزنـا فـأعـولـه الـبـكـا فـألا عـديـا إذ تـطـل وتـبـعـد[150]

بـكـيـت أبـا عـبـس لـقـرب دمـائـهـا فـتـعـذر إذ لا يـوقـد الـحـرب مـوقـد

أصـابـهـم يـوم الـخـنـادم فـتـيـة كرام فسل منهم نفيل ومعبد[151]

هـنـالـك إن تـفـسـح دمـوعـك لا تـلـم عليهم وإن لم تدمع العين فاكمدوا[152]

وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم الفتح:

نـفـى أهـل الـحـبـلـق كـل فـج مـزيـنـة غـدوة وبـنـو خـفـاف[153]

ضـربـنـاهـم بـمـكـة يـوم فـتـح الـنـ ـبـي الـخـيـر بـالـبـيـض الـخـفـاف

صـبـحـنـاهـم بـسـبـع مـن سـلـيـم وألـف مـن بـنـي عـثـمـان واف[154]

نـطـا أكـتـافـهـم ضـربـاً وطـعـنـاً ورشـقـاً بـالـمـريـشـة الـلـطـاف[155]

تـرى بـيـن الـصـفـوف لـهـا حـفـيـفـاً كما انصاع الفواق من الرصاف[156]

---

(149) السيرة، 2: 424 ـ 425.

(150) العويل: رفع الصوت بالبكاء، وتطل: يهدر دمها، ولا يؤخذ بثأرها، وألا: طرد وأبعد، أو ضرب بالألة وهي الحربة العريضة، والأول أنسب للمعنى، ينظر المعجم الوسيط، مواد: عول، طل، ألل (ألا).

(151) الخنادم: أراد يوم الخندمة، فجمعها للوزن.

(152) السابق، 2: 425، واكمدوا أصلها: فاكمد بكسر الدال، وإنما رفعها وجمعها خوفاً من الوقوع في الإقواء.

(153) حبلق: أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس، والحبلق صغار الغنم، ولعله أراد: أصحاب الغنم، وبنو خفاف: يظن من سليم، ينظر السيرة، 2: 425.

(154) بسبع: سبعمائة، وبنو عثمان: مزينة، ينظر نهاية الأرب: 350.

(155) نطا: نطأ، والرشق: الرمي السريع، والمريشة: السهام ذوات الريش، ينظر المعجم الوسيط، مواد: وطأ، رشق، راش.

(156) الحفيف: الصوت، انصاع: انشق، الفواق: طرف السهم من جهة الوتر، والرصاف جمع رصفة: عصبة تلوى على فوق السهم، ينظر السابق، مواد: حف، صاع، فوق، رصف.

فرحنا والجياد تجول فيهم بأرماح مقومة الثقاف
فأبنا غانمين بما اشتهينا وآبوا نادمين على الخلاف
وأعطينا رسول الله منا مواثقنا على حسن التصافي
وقد سمعوا مقالتنا فهموا غداة الروع منا بانصراف[157]

وقال عباس بن مرداس السلمي في فتح مكة:

منا بمكة يوم فتح محمد ألف تسيل به البطاح مسوم
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه وشعارهم يوم اللقاء مقدم
في منزل ثبتت به أقدامهم ضنك كأن الهام فيه الحنتم[158]
جرت سنابكها بنجد قبلها حتى استقاد لها الحجاز الأدهم
الله مكنه له وأذله حكم السيوف لنا وجد مزحم[159]
عود الرياسة شامخ عرنينه متطلع ثغر المكارم خضرم[160]

ومن الشعر الذي قيل يوم فتح مكة، قول جعدة بن عبد الله الخزاعي:

أكعب بن عمرو دعوة غير باطل لحين له يوم الحديد متاح
أتيحت له من أرضه وسمائه لتقتله ليلاً بغير سلاح
ونحن الألى سدت غزال خيولنا ولفتاً سددناه وفج طلاح[161]

---

(157) السيرة، 2: 425 ـ 426.

(158) ضنك: ضيق، الهام: الرؤوس، الحتم: الحنظل، ينظر المعجم الوسيط، مواد: ضنك، هوم، حتم.

(159) مزحم: كثير المزاحمة على فعل الخير، وهو يفخر بجدهم غالب، ينظر السيرة، 2: 426.

(160) السيرة، 2: 426 ـ 427، والعود: الرجل المسن الذي حنكته التجارب، شامخ العرنين: مرفوع طرف الأنف، وهو كناية عن العزة والشموخ، ثغر المكارم: منبعها، الخضرم: الجواد المعطاء، ينظر السيرة، 2: 427.

(161) غزال، ولفتا، وفج طلاح: أسماء أماكن بمكة وما حواليها، ينظر معجم البلدان، 4: 37، 201، 236، و5: 20.

خطرنا وراء المسلمين بجحفل ذوي عضد من خيلنا ورماح[162]

ومما ورد من الشعر في فتح مكة أيضاً، قول بجيد بن عمران الخزاعي:

وقد أنشا الله السحاب بنصرنا ركام صحاب الهيدب المتراكب[163]

وهجرتنا في أرضنا عندنا بها كتاب أتى من خير ممل وكاتب

ومن أجلنا حلت بمكة حرمة لندرك ثأراً بالسيوف القواضب[164]

جذيمة وفتح مكة:

بعد فتح مكة بعث الرسول سراياه فيما حولها تدعو إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، فلما بلغ بني جذيمة، أمرهم بوضع السلاح، فوافقوا، إلا رجلاً منهم، اسمه جحدم، اعترض على ذلك، قائلاً: «إنه خالد والله!! ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً»[165]، فأقنعه رجال من قومه، بحجة أنهم لا يريدون سفك الدماء، وأن كل الناس أسلموا، ووضعوا السلاح، والحرب وضعت أوزارها، وأمن الناس، فوضع سلاحه، فحدث ما توقعه، إذ أمرهم بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل منهم عدداً، فلما بلغ الخبر رسول الله، رفع يده إلى السماء، وقال:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[166].

وفي ذلك قال شاعر من بني جذيمة اسمه: سلمى[167]:

---

(162) السيرة، 2: 427، وخطرنا: اهتززنا ومنعنا، والجحفل: الجيش الكبير، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: خطر، جحفل.

(163) أنشا: أنشأ، الهيدب: المتداني من الأرض، عن المعجم الوسيط، مادة: هدب.

(164) السابق، 2: 428، والقواضب: القواطع.

(165) السابق، 2: 429.

(166) السيرة، السابق.

(167) وقيل: سلمى اسم امرأة، ينظر السيرة، 2: 431، هامش.

ولولا مقال القوم للقوم أسلموا للاقت سليم يوم ذلك ناطحاً[168]

لماصعهم بسر وأصحاب جحدم ومرة حتى يتركوا البرك ضابحا[169]

فكائن ترى يوم الغميصاء من فتى أصيب ولم يجرح وقد كان جارحاً[170]

ألظت بخطاب الأيامى وطلقت غداتئذ منهن من كان ناكحا[171]

ورد على هذا الشعر عباس بن مرداس السلمي بقوله:

دعي عنك تقوال الضلال كفى بنا لكبش الوغى في اليوم والأمس ناطحا[172]

فخالد أولى بالتعذر منكم غداة علا نهجا من الأمر واضحا

معاناً بأمر الله يزجي إليكم سوانح لا تكبو له وبوارحا[173]

نعوا مالكاً بالسهل لما هبطنه عوابس في كابي الغبار كوالحا[174]

فإن نك أثكلناك سلمى فمالك تركتم عليه نائحات ونائحا[175]

وقال الجحاف بن حكيم السلمي في الرد على الجذيمي السلمى أيضاً:

شهدن مع النبي مسومات حنيناً وهي دامية الكلام[176]

---

(168) سليم: وهم قبائل قيس عيلان وكانت منازلهم في نجد بالقرب من خيبر، ينظر نهاية الأرب: 294 ـ 295.

(169) ماصعهم: ضاربهم بالسيف، والبرك: الإبل الباركة، والضبح: نفس الخيل والإبل في حالة الإعياء الشديد، والمقصود: صائحاً، ينظر المعجم الوسيط، مواد: مصع، برك، ضبح.

(170) الغميصاء: اسم موضع كان يسكنه بنو جذيمة بن عامر، بالقرب من مكة، ينظرم معجم البلدان، 4: 214.

(171) السيرة، 2: 432، وألظت: لزمت وألمت، الأيامى جمع أيم: المرأة لا زوج لها، عن السابق.

(172) الكبش هنا: السيد الشجاع.

(173) السوانح: ما ولاك جانبه الأيسر، وتكبو: تسقط، والبوارح: ما ولاك جانبه الأيمن، والسانح أحسن في التيمن عندهم من البارح، كما قال أبو عمرو الشيباني، ينظر السيرة، 2: 432 هامش.

(174) كابي الغبار: مرتفعه، والموالح: العوابس التي انقبضت شفاهها فظهرت أسنانها، عن السابق.

(175) السابق، 2: 432 ـ 433.

(176) المسومات: المعلمات بعلامة، والكلام: الجراح، ينظر المعجم الوسيط، مادتي: سوم، كلم.

وغـزوة خـالـد شـهـدت وجـرت سـنـابـكـهـن بـالـبـلـد الـحـرام
نـعـرض لـلـطـعـان إذا الـتـقـيـنـا وجـوهـاً لا تـعـرض لـلـطـام
ولـسـت بـخـالـع عـنـي ثـيـابـي إذا هـز الـكـمـاة ولا أرامـي
ولـكـنـي يـجـول الـمـهـر تـحـتـي إلى العلوات بالعضب الحسام[177]

وقال رجل من بني جذيمة يوم الفتح:

جزى الله عنا مدلجاً حيث أصبحت جزاءة بوسى حيث سارت وحلت
أقاموا على أقضاضنا يقسمونها وقد نهلت فينا الرماح وعلت[178]
فـوالله لـولا ديـن آل مـحـمـد لقد هربت منهم خيول فشلت
وما ضرهم أن لا يعينوا كتيبة كرجل جراد أرسلت فاشمعلت[179]
فإما ينيبوا أو يثوبوا لأمرهم فلا نحن نجزيهم بما قد أضلت[180]

وقال رجل من بني ليث، اسمه وهب، في الرد على شعر الجذيمي:

دعونا إلى الإسلام والحق عامرا فما ذنبنا في عامر إذ تولت
وما ذنبنا في عامر لا أبا لهم لأن سفهت أحلامهم ثم ضلت[181]

وقال رجل من بني جذيمة:

ليهنئ بني كعب مقدم خالد وأصحابه إذ صبحتنا الكتائب[182]
فلا ترة يسعى بها ابن خويلد وقد كنت مكفياً لو أنك غائب[183]

---

(177) السيرة، 2: 433.

(178) الأقضاض جمع قض: الأموال المجتمعة، النهل: الشرب الأول، العل: الشرب الثاني، ينظر المعجم الوسيط، مواد: قض، نهل، عل.

(179) رجل جراد: جماعة منه، اشمعلت: شملت واتسعت، أو تفرقت، ينظر السابق، مادتي: رجل، شمع.

(180) السيرة، 2: 434 ـ 435.

(181) السابق: 435.

(182) مقدم بتشديد الدال: قدوم، عن السابق.

(183) الترة: الثأر، ينظر المعجم الوسيط، مادة: وتر.

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب[184]

وارتجز غلام جذمي، هارب من جيش خالد، وهو يسوق بأمه وأختين له، قائلاً:

ارخيْنَ أذيال المروط وأربعن مشي حييات كأن لم يفزعن
إن تمنع اليوم نساء تمنعن[185]

وارتجز ثلاثة غلمة من بني جذيمة، يقال لهم: بنو مساحق، حين سمعوا بخالد، وجيشه، فقال الأول:

قد علمت صفراء بيضاء الإطل يحوزها ذو ثلة وذو إيل
لأغنين اليوم ما أغنى رجل[186]

وقال الثاني:

قد علمت صفراء تلهي العرسا لا تملأ الحيزوم منها نهسا
لأضربن اليوم ضرباً وعسا ضرب المحلين مخاضا قعسا[187]

وقال الثالث:

أقسمت ما إن خادر ذو لبده شثن البنان في غداة برده
جهم المحيا ذو سبال ورده يرزم بين أيكة وجحده
ضار بتأكال الرجال وحده بأصدق الغداة مني نجده[188]

---

(184) السيرة، 2: 435.

(185) السيرة، السابق.

(186) السيرة، السابق، والإطل: الخاصرة، والثلة: القطيع من الغنم، عن المعجم الوسيط، مادتي: إطل، ثل.

(187) السابق، 2: 436، والحيزوم: أسفل عظام الصدر، والنهس: أكل اللحم بمقدم الأسنان، يريد أنها قليلة الأكل، والوعس: السريع، المحلون: الداخلون في الحل، المخاض: الإبل الحوامل، القعس: المتقاعس الذي يأبى أن يمشي، ينظر المعجم الوسيط، مواد: حزم، نهش، وعس، حل، مخض، قعس.

(188) السيرة، 2: 436، الخادر: الأسد في خدره، والخدر: الأشجار الكثيفة، واللبدة: الشعر=

ولما أمر الرسول خالداً بهدم العزى، توجه إليها، فسمع بمسيره سادنها، وكان من بني سليم، علق عليها سيفه، واختفى في الجبل الذي هي فيه، وهو يقول:

أيا عز شدي شدة لا شوى لها على خالد ألقى القناع وشمري
أيا عز إن لم تقتلي المرء خالدا فبوئي بإثم عاجل أو تنصري[189]

الدراسة الفنية:

من خلال العرض العام للنصوص الشعرية المصاحبة لعملية الفتح، يظهر جلياً أن أكثر مراحله، منذ التمهيد له حتى آخر مشاهده، تم تصويرها تصويراً فنياً رائعاً، في شعر كثير منوع، وإن المتتبع لهذه الآثار الأدبية يرى بوضوح أغلب مراحل الفتح مجسمة أمامه في لوحات فنية جميلة أخاذة، معبرة عن حالات الرضا والغضب، والأمان والخوف، والفخر والحماسة، والانتقام والذل، والاعتراف بالذنب، والإذعان للحق والعدل، والرجوع عن الغي والباطل، إذا ظهرت الحجة، أو بدا البرهان، وغيرها من الحالات النفسية المختلفة، والمشاعر الفياضة تجاه الناس، والحرب والسلم، والأماكن المقدسة، وتوقعات المستقبل، وما شابه ذلك.

ولعل المتأمل في هذه النصوص يلاحظ اعتماد أصحابها كثيراً على التصوير الفني القائم على المجاز عموماً، من استعارة وتشبيه وكناية، كما يلاحظ الأساليب الرصينة المتينة، والتعبيرات التي تأسر النفس بحسن نظمها، وقوة بيانها، وبراعة انتقاء ألفاظها، أما عن غرابة اللغة، وقوة جرسها، فحدث ولا حرج، إذ لا يكاد يخلو مقطع من لفظ أو عدد من الألفاظ الغريبة، أو

= الذي فوق كتفيه، وشثن: غليظ، البنان: الأصابع، بردة: باردة، وجهم المحيا: عابس الوجه، السبال: الشعر الذي حول فمه، يرزم: يصوت، الأيكة: الشجر الملتف، الكثير الأغصان، الجحدة: القليلة الورق والأغصان، ضار: متعود، التأكال: الأكل، النجدة: الشجاعة، ينظر المعجم الوسيط، مواد: خدر، لبلد، شثن، بن، برد، جهم، سبل، رزم، أيك، جحد.

(189) السيرة، 2: 437، ومعنى لا شوى لها: لا تبقى على شيء، بوئي: ارجعي، عن السابق.

الموغلة في الغرابة، والألفاظ القوية المزمجرة، التي تقرع السمع قرعاً بجرسها القوي، ولا يعدم الباحث ما يشنف السمع من المفردات الرقيقة العذبة، الحلوة الجرس، وكل هذه الملاحظات يمكن تبينها من خلال المتابعة الفنية التالية للتصوير القائم على المجاز، وللأساليب، واللغة، وما قد يستوقف القارئ من مميزات فنية تدعوه للإعجاب بما يقرأ، والاستحسان له، أو استغرابه، أو استهجانه، وما شابه ذلك مما يحمل النفس ـ لا إرادياً ـ على ردود أفعال مختلفة.

التصوير الفني:

يعد التصوير المعتمد على الاستعارة والتشبيه والكناية من أبرز المظاهر الفنية في النصوص التي تمت عرضها آنفاً، فهي من الكثرة بمكان بارز، بحيث لا تحوج الناظر إلى استعمال الحيلة في الوقوع عليها، أو الجهد الكبير في استخراجها، وفيما يلي يستحسن عرض أمثلة منوعة من هنا وهناك، مستمدة من تلك النصوص الشعرية للتمثيل فقط، وليست للاستقصاء:

الاستعارة:

تمثل هذه الأداة الفنية جانباً مهماً في تجسيم كثير من مواقف الفتح في مراحله المختلفة، ومن ذلك مثلاً:

تصوير الشاعر تميم بن أسد لسرعة خيل الأعداء، بقوله:

يـزجـون كـل مـقـلـص خـنـاب

وتصويره للرعب الذي ملك عليه كل أقطار نفسه من مشهد الخيل الداهمة له، بقوله:

ونشيت ريح الموت من تلقائهم[190]

وقول الأخزر بن لعط مصوراً انتقامه من عدوه:

---

(190) السيرة، 2: 391.

شفينا النفوس بالمناصل

نضحنا لهم من كل شعب بوابل[191]

وقول حسان بن ثابت في تصوير خبرة صفوان بن حرب الطويلة بالجيوش، وميادين تصادمها، وقوة القتال، وشناعة الانتقام:

وصفوان عود حن من شفر استه فهذا أوان الحرب شد عصابها

وقوله:

إذا لقحت حرب وأعصل نابها[192]

كما استعار رخات المطر المتتالية لمجموعات الخيول المتعاقبة في دخولها لمكة، في قوله:

تظل جيادنا متمطرات[193]، أي متتابعات في دفعات كالمطر. واستعار البحر لرحابة صدره، وسماحة نفسه، في قوله:

بحري لا تكدره الدلاء[194]

وتصوير حماس لمطاردة المسلمين لهم يوم الخندمة، بأنهم أسود تلهث وراءهم بقوله:

لهم نهيت خلفنا وهمهمه[195]

وجعل فضالة بن عمير للشرك وجهاً يغشاه الظلام، في قوله:

والشرك يغشى وجهه الإظلام[196]

واستعار ابن الزبعري الرتق للسانه، والبور لنفسه، في قوله مخاطباً الرسول ﷺ:

---

(191) السابق، 392.

(192) ديوان حسان: 98 ـ 99.

(193) ديوان حسان: 61.

(194) السابق: 66.

(195) السابق: 408.

(196) السابق: 417.

يـا رسـول الـمـلـيـك إن لـسـانـي راتـق مـا فـتـقـت إذ أنـا بـور

كما استعار الاعتلاج والبهامة لليل، في قوله:

والـلـيـل مـعـتـلـج الـرواق بـهـيـم

وجعل استمراره في الضلالة أسبابا تمد للردى، وأمر الغواة مقوداً له، في قوله:

وأمد أسباب الردى، ويقودني أمر الغواة[197]

واستعار القرم، وهو الفحل من الإبل، للنبي ﷺ، كما استعار لأصله الكريم: الذرا، وهو الأعالي من كل شيء، في قوله:

قـرم عـلا بـنـيـانـه مـن هـاشـم فـرع تـمـكـن فـي الـذرا...[198]

واستعار هبيرة بن وهب، الحبال لعلائق الأرحام، في قوله:

وعـطـفـت الأرحـام مـنـك حـبـالـهـا[199]

واستعار عباس بن مرداس الكبش للرجل المقدام في الحرب، وحتى تكتمل جوانب الصورة، ذكر المناطحة بمعنى المقارعة في القتال، في قوله:

كـفـى بـنـا لـكـبـش الـوغـى نـاطـحـاً[200]

واستعار شاعر من بني جذيمة النهل والعل للرماح، لتصوير مدى مقاساتهم من ضراوة الحرب، في قوله:

نـهـلـت فـيـنـا الـرمـاح وعـلـت[201]

واستعار آخر من بني ليث السفاهة والضلال للحمل، في قوله:

---

(197) السيرة، 2: 419.

(198) السابق: 420.

(199) السابق: 421.

(200) السابق: 432.

(201) السابق: 434.

سـفـهـت أحـلامـهـم ثـم ضـلـت[202]

وعلى هذا النحو يبدو التصوير الفني بواسطة الاستعارة، التي أعطت تجسيماً حياً لكل المواقف التي استعملت فيها.

التشبيه:

وهو من الأدوات الفنية التي كثر الاعتماد عليها في تصوير مشاهد الفتح، كما يظهر من الأمثلة التالية:

من ذلك تصوير الأخزر بن لعط لمشهد انتقامهم من أعدائهم، بأنهم يكثرون فيهم الذبح، والقتل، بقوله:

نـذبـحـهـم ذبـح الـتـيـوس كـأنـنـا أسـود تـبـارى فـيـهـم بـالـقـواصـل

كما يصورهم في انهزامهم بأنهم صغار نعام هاربة مسرعة، خوفاً من الأعداء، في قوله:

كـأنـهـم بـالـجـزع إذ يـطـردونـهـم بفائور حفان النعام الجوافل[203]

وتصوير جيش المسلمين بالبحر، في قول عمرو بن سالم الخزاعي، يحث النبي ﷺ على غزو قريش لإخلافها الموعد:

في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشاً أخلفوك الموعدا[204]

ويشبه أبو سفيان بن الحارث موقفه العدائي من المسلمين يوم أن كان يحرض المشركين على مواجهة الرسول، والتصدي لدعوته، بمن كان يسير في الظلام، حائراً لا يدري طريقه، في قوله: هنا وقفنا

لـعـمـرك إنـي يـوم احـمـل رايـة لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله . . . . . [205]

(202) السابق: 435.

(203) السيرة، 2: 392.

(204) السابق: 394.

(205) السابق: 401.

ويصور حماس بن قيس بن خالد هزيمتهم في معركة الخندمة، يوم الفتح، لما حاول هو وجماعة من المشركين التصدي لجيش المسلمين أثناء دخوله لمكة، فقال مخاطباً امرأته لما أنبته على فراره، وكان قبلها يمثل أمامها دور البطولة، حين كان يتوعد بالتصدي لمحمد وأصحابه، وبعد عدته لذلك:

إنك لو شاهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالموتمه، أي كالمرأة التي فقدت زوجها[206]

وشبه ابن الزبعري نفسه، وهو في قلقه، وكثرة همومه، وأرقه، مما بلغه من لوم الرسول له، بأنه محموم، في قوله:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم

مما أتاني أن أحمد لامني فيه فبت كأنني محموم[207]

وصور هبيرة المخزومي بطولة بني عشيرته، بتشبيه مشهد ملاعبتهم للسيوف، أمام أعدائهم أثناء الحرب، بمشهد الأطفال في حالة لعبهم بسيوف من خشب، قال:

وصارت بأيديها السيوف كأنها مخاريق ولدان...

كما شبه حالة عدم فائدة نصحه لزوجه هند بنت أبي طالب بألا تتبع محمداً، لعدم إصغائها للنصيحة، بحالة النبال التي ليس نصال، في عدم إصابتها للهدف، في قوله:

وإن كلام المرء في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها[208]

وشبه حسان حالته، وهو أسير، متيم، في حب شعثاء، بصورة وقوعه في أسر خمر بيت رأس، الممزوجة بالعسل والماء، أو أنها أشبه بطعم تفاح طري ناضج، إذ هي أحسن الأشربة، ثم بنى عليها باقي المشهد، من أنهم ينسبون إلى

---

(206) السابق: 408.

(207) السيرة، 2: 419.

(208) السابق: 421.

هذه الخمرة اللوم، والضرب، والسباب، وأنها تتركهم ملوكاً وآساداً، إذا شربوها، قال:

فدع هذا، ولكن من لطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره الجناء
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً ... فهن لطيب الريح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء[209]

وشبه ذلك الحرب بالعبودية، في قوله مخاطباً أبا سفيان بن الحارث:

سيوفنا تركتك عبداً[210]

وشبه عمرو بن سالم الخزاعي النبي ﷺ بالسيف الصقيل المهند، في قوله:

أحث على خير وأسبغ نائلاً ... إذا راح كاليسف الصقيل المهند

كما صور وعيده بأنه كالأخذ باليد، في قوله:

تعلم رسول الله أنك مدركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليد[211]

وشبه بجير بن زهير حفيف مرور سهامهم المريشة اللطاف بين صفوف المشركين، بانزلاق فوق السهم من الرصفة، وهي العصبة التي تلوى على الفوق، في قوله يصور المشركين في ذلهم وانكسارهم يوم الفتح:

صبحناهم بسبع من سليم ... وألف من بني عثمان واف

---

(209) ديوان حسان: 58 ـ 60.

(210) السابق: 63.

(211) السيرة، 2: 424.

نـطـا أكـتـافـهـم ضـربـاً وطـعـنـاً ورشـقـاً بـالـمـريَّـشـة الـلـطـاف

تـرى بـيـن الـصـفـوف لـهـا حـفـيـفـاً كما انصاع الفواق من الرصاف»[212]

ويلوم شاعر من جذيمة بني مدلجٍ، بأنهم استغلوا فرصة ضعف الجذيميين، فانقضوا عليهم يسلبونهم، ولم يساعدوهم، بالرغم من أنهم يعرفون أن عددهم قليل، وقد شبههم في قلة عددهم بالمجموعة من الجراد المتفرق، الذي عبر عنه برجل جراد، في قوله:

ومـا ضـرهـم ألا يـعـيـنـوا كـتـيـبـة كرجل جراد أرسلت فاشمعلت[213]

وطلب فتى جذيجي من أمه وأختين له، كان يسوق بهن هرباً من جيش خالد، أن يرخين أذيال المروط، ويسترحن في مشيهن، كأنهن حييات لم يفزعن، فهو يشبه الموقف الحاضر، وهم في حالة الخوف والرعب، بموقفهن وهن في حالة الراحة والاطمئنان، بقوله:

رخـيـن أذيـال الـمـروط وأربـعـن مشي حييات كأن لم يفزعن[214]

وعلى هذا النحو يبدو التشبيه في كثرته، وفي تصويره لمواقف الفتح المختلفة.

الكنايـة:

الاعتماد على الكناية في تصوير مراحل فتح مكة قليل نسبياً، ومن ذلك على سبيل المثال: قول تميم بن أسد معتذراً عن فراره عن منبه:

لـمـا رأيـت بـنـي نـفـاثـة أقـبـلـوا يـغـشـون كـل وتـيـرة وحـجـاب

كناية عن كثرتهم، أيضاً عبر عن القتل، بترك لحمه للوحوش، في قوله:

مـن يـثـقـفـوه يـتـركـوا لـحـمـاً لـمـجـريـة وشـلـو غـراب

(212) السابق: 426.

(213) السابق: 435.

(214) السيرة، 2: 435.

وعبر عن سرعته الشديدة في الجري، فراراً من العدو، بقوله:

قـومـت رجـلاً لا أخـاف عـثـارهـا وطرحت بالمتن العراء ثيابي[215]

وعبر الشاعر بديل بن عبد مناة عن بطولات أبناء قبيلته، وشجاعتهم، بأنهم دائبون على إعطاء الديات لأعدائهم، وأن أعداءهم لا يعطون لهم الدية، في قوله:

وفي كل يوم نحن نحبو حباءنا لعقل ولا يحبى لنا في المعاقل

وكنى عن جبن الأعداء ورعبهم، بأن أمهم تسلح في بيتها، مستجمرة بما سلحت، من شدة الخوف، في قوله:

أأن أجمرت في بيتها أم بعضكم بجعموسها تنزون أن لم نقاتل

كما كنى عن جبن العدو، بترك أمرهم في بلابل، في قوله:

كـذبـتـم وبـيـت الله مـا إن قـتـلـتـم ولكن تركنا أمركم في بلابل[216]

وكنى حسان عن كثرة قتلهم لأبطال العدو، وقواده، بأنهم لم يتركوا لهم سيداً واحداً يدعوهم للمحافل غير ناقب، في قوله:

لحا الله قوماً لم ندع من سراتهم لهم أحداً يندوهم غير ناقب

وكنى عن السرقة، بعدوّ الحقائب، في قوله يخاطب نوفلاً:

متى كنت مفلاحاً عدو الحقائب[217]

وصور حسان أيضاً، مبلغ نشوة الخمر، بقوله:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً[218]

كما عبر عن أثرها السيىء في شاربها، بتعريضه للضرب والشتم، بقوله:

---

(215) السابق: 391.

(216) السابق: 393.

(217) السيرة، 2: 394.

(218) دوان حسان: 60.

نـولـيـهـا الـمـلامـة إن ألـمـنـا إذا مـا كـان مـغـث أو لـحـاء[219]

وكنى عمرو الخزاعي عن خؤولتهم للرسول ﷺ، بأنه كان ولداً وهم كانوا والداً، في قوله:

قـد كـنـتـم ولـداً وكـنـا والـداً

كما كنى بتربد وجه الرسول عن غضبه الشديد، في قوله:

إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا[220]

وكنى أبو سفيان بن الحارث عن هداية الله له إلى الإسلام، بأنه هداه هاد غير نفسه، في قوله:

هـدانـي هـاد غـيـر نـفـسـي

وكنى عن شجاعته بقوله:

قل لثقيف غيري أوعدي، أي هددي غيري أما أنا فلا أهدد[221]. وكنى ابن الزبعري عن شركة برتق لسانه، في قوله:

يـا رسـول الـمـلـيـك إن لـسـانـي راتـق مـا فـتـقـت....

كما كنى عن تماديه في معاداة الإسلام، بمباراته الشيطان في الغواية، في قوله:

إذ أبـاري الـشـيـطـان فـي سـنـن الـغـي

وكنى عن قوة ناقة النبي ﷺ، وسرعتها، بقوله، مخاطباً له:

يا خير من حملت على أوصالها عـيـرانـة سـرح الـيـديـن غـشـوم[222]

وكنى بقوله:

فـرع تـمـكـن فـي الـذرا

---

(219) السابق: 59.

(220) السيرة، 2: 394.

(221) السابق: 401.

(222) السابق: 419.

عن نبل الأصل، وطيب المنبت.

وكنى هبيرة بن وهب عن حبه لزوجه، بأن خيالها أرقه على البعد، في قوله:

وقد أرقت في رأس حصن ممنع بنجران يسري بعد ليل خيالها[223]

وكنى بديل بن عبد مناف عن موت القادة المحركين للحرب، في موقعة الخندمة، يوم الفتح، بأنه لا يوجد من يوقد نار الحرب، بقوله مخاطباً أنساً:

بكى أنس رزنا فأعوله البكا فألاً عدياً إذ تطل وتبعد

بكيت أبا عبس لقرب دمائها فتعذر إذ لا يوقد الحرب موقد[224]

وكنى بجير بن زهير عن هزيمة المشركين يوم الفتح، برجوعهم بالندامة على الخلاف، بينما رجع غيرهم بالانتصارات والغنائم، في قوله:

فأبنا غانمين بما اشتهينا وآبوا نادمين على الخلاف[225]

وكنى غلام من جذيمة عن الأمان، وهو هارب بأمه وأختيه من جيش خالد، بقوله:

ارخَيْن أذيال المروط وأربعن[226]

وعلى هذا النحو يبدو تصوير مواقف فتح مكة بواسطة الكناية.

الأساليب:

تميّزتِ الآثار الأدبية للفتح بكثرة الأساليب الراقية المعبرة، التي تأسر النفس بجمال نظمها، وحسن ديباجتها، واعتمادها على الحجة الدامغة، والدليل الساطع، والالتجاء إلى الوسائط الفنية المجسمة للمعاني، كالاستفهام

(223) السابق: 420.

(224) السابق: 425.

(225) السيرة، 2: 434.

(226) السابق: 435.

الإنكاري، والتعجب، والسخرية، والدعاء، والاقتباس، وما شابه ذلك من الأساليب المختلفة، وهذا المبحث مخصص لمتابعة أمثلة منوعة منها على النحو التالي:

من ذلك: قول تميم معبراً عن سرعته أثناء هربه من الأعداء:

ونجوت لا ينجو نجائي أحقب عـلـج أقـب مـشـمـر الأقـراب

وقوله بأسلوب مقنع، وحجة ظاهرة، في رده على التي لامته لهربه، وتركه منبهاً للأعداء:

تلحى ولو شهدت لكان نكيرها بـولا يـبـل مـشـافـر الـقـبـقـاب

الـقـوم أعـلـم مـا تـركـت مـنـبـهـاً عن طيب نفس فاسألي أصحابي[227]

وكثر الاعتماد على أسلوب المحاجة، لمحاولة الإقناع، كما في قول الأخزر بن لعط في تبرير اعتدائهم على خزاعة داخل الحرم، بعد أن أثخنوهم قتلاً وذبحاً:

هم ظلمونا واعتدوا في مسيرهم وكانوا لدى الأنصاب أول قاتل[228]

وقول بديل الخزاعي، معبراً عن بطولاتهم في حربهم لبني بكر:

تـفـاقـد قـوم يـفـخـرون ولـم نـدع لـهـم سـيـدا يـنـدوهـم غـيـر نـافـل

وقوله أيضاً، في غزوهم لبني كنانة على ماء لهم يسمى: التلاعة، مقتبساً في أسلوبه المثل العربي القائل: «سبق السيف العذل»[229]:

ونـحـن صـبـحـنـا بـالـتـلاعـة داركـم بأسيافنا يسبقن لوم العواذل[230]

واعتمد حسان بن ثابت أسلوب السخريَة في خطابه لبني بكر بقوله:

---

(227) السيرة، 2: 391.

(228) السابق: 392.

(229) ينظر أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط2: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1959)، 2: 328.

(230) السيرة، السابق: 393.

لحا الله قوماً لم ندع من سراتهم لهم أحداً يندوهم غير ناقب
أخصيي حمار مات بالأمس نوفلاً متى كنت مفلاحاً عدو الحقائب[231]

واعتمد عمرو الخزاعي في خطابه للنبي ﷺ أسلوب الإغراء بقريش، منتهزاً فرصة إخلافها للعهد الذي بينها وبين المسلمين، في قوله:

..... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أعدو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجداً[232]

واستعمل حماس أسلوب المحاجة مع امرأته، لما لامته في هروبه أمام جيش المسلمين، وكان قبلها يعد العدة للقائهم، ويتباهى بذلك:

إنك لو شاهدت يوم الخندمه إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالموتمه واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضربا فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه[233]

ولما قتل نميلة بن عبد الله مقيس بن حبابة، لجأت أخته إلى أسلوب التقريع والعتاب، في قولها:

لعمري لقد أخزى نميلة رهطه وفجع أضياف الشتاء بمقيس
فلله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تخرس[234]

وقول ابن الزبعري، معتذراً للنبي عما بدر منه في جاهليته، في أسلوب جميل رقيق أخاذ:

---

(231) السابق: 394.

(232) السيرة، 2: 394 ـ 395.

(233) السابق: 408.

(234) السابق: 410 ـ 411.

يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد قلبي، ومخطئ هذه محروم[235]

وقول هبيرة المخزومي، في الدعاء على زوجة أم هانئ، لما أسلمت وتركته:

فإن كنت قد تابعت دين محمد وعطفت الأرحام منك حبالها
فكوني على أعلى سحيق بهضبة ململمة غبراء يبس بلالها[236]

وقول حسان معتمداً أسلوب الدعاء يوم الفتح:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وقوله في حديثه عن الخمر، وكأنها تعقل ما يقال:

نوليها الملامة إن ألمنا ....
ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً[237] ....

ويصور الخيل في صورة من يعقل، في قوله متحدثاً عنها:

يناز عن الأعنة مصغيات ... ...
تظل جيادنا متمطرات[238] ... ...

واستعمل أسلوب التهديد، في قوله مخاطباً قريشاً:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف اللقاء

(235) السيرة، 2: 419.
(236) السابق: 421.
(237) السابق: 422.
(238) السابق: 423.

وإلا فـاصـبـروا لـجـلاد يـوم يـعـيـن الله فـيـه مـن يـشـاء

كما استعمل أسلوب الحوار، في قوله لقريش:

وقـال الله قـد أرسـلـت عـبـداً يـقـول الـحـق إن نـفـع الـبـلاء
شـهـدت بـه فـقـومـوا صـدقـوه فـقـلـتـم لا نـقـوم ولا نـشـاء
وقـال الله قـد سـيـرت جـنـداً هـم الأنـصـار عـرضـتـهـا الـلـقـاء[239]

واستعمل أسلوب الإيهام في رده على أبي سفيان بن الحارث لما هجا الرسول:

أتـهـجـوه ولـسـت لـه بـكـفء فـشـركـمـا لـخـيـركـمـا الـفـداء

وقوله:

أمـن يـهـجـو رسـول الله مـنـكـم ويـمـدحـه ويـنـصـره سـواء[240]

وقال أنس بن زنيم، معتمداً أسلوب الدعاء، في اعتذاره للرسول ﷺ مما وشاه به عنده عمرو الخزاعي:

تـعـلـم بـأن الـركـب ركـب عـويـمـر هـم الكـاذبـون المـخـلـفـو كـل مـوعـد
ونـبـوا رسـول الله أنـي هـجـوتـه فـلا حـملت سـوطي إلي إذن يدي[241]

وقال في محاجة عمرو الخزاعي:

فـإنـي لا ديـنـاً فـتـقـت ولا دمـاً هـرقـت تـبـين عـالـم الـحـق واقـصـد[242]

وقال عباس بن مرداس مفاخراً بمشاركة قومه في يوم الفتح:

مـنـا بـمـكـة يـوم فـتـح مـحـمـد ألـف تـسـيـل بـه الـبـطـاح مـسـوم
جـرت سـنـابـكـهـا بـنـجـد قـبـلـهـا حـتـى اسـتـقـاد لـهـا الـحـجـاز الأدهـم

---

(239) السابق.

(240) السيرة، 2: 424.

(241) السابق.

(242) السابق: 425.

الله مـــكـــنـــه لـــه وأذلـــه حكم السيوف لنا وجد مزحم[243]

وقال جعدة الخزاعي يوم الفتح، معتمداً الاستفهام الإنكاري في مخاطبة كعب:

أكعب بن عمرو دعوة غير باطل لحين له يوم الحديد متاح[244]

وقال شاعر من بني جذيمة في تعنيف قريش، معتمداً أسلوب التهديد:

ولولا مقال القوم للقوم أسلموا للاقت سليم يوم ذلك ناطحا

لماصعهم بسر وأصحاب جحدم ومرة حتى يتركوا البرك ضابحا

فكائن ترى يوم الغميصاء من فتى أصيب ولم يجرح وقد كان جارحا

ألظت بخطاب الأيامى وطلقت غداتئذ منهن من كان ناكحا[245]

ومن الأساليب القائمة على المحاجة، قول شاعر من بني جذيمة:

دعونا إلى الإسلام والحق عامرا فما ذنبنا في عامر إذ تولت

وما ذنبنا في عامر لا أبا لهم لأن سفهت أحلامهم ثم ضلت[246]

وغيرها من الأساليب الجميلة المنوعة التي اشتمل عليها الشعر المصاحب لعملية فتح مكة.

الألفاظ:

اشتملت لغة الشعر المصور لمراحل الفتح على ألوان شتى من المفردات، تتراوح بين الغرابة والألفة، والسهولة والصعوبة، والرقة والخشونة، وما شابه ذلك من المفردات الكثيرة المنوعة، وفي عجالة نحاول إعطاء أمثلة لكل هذه الألوان.

---

(243) السابق: 426.

(244) السابق: 427.

(245) السابق: 432.

(246) السابق: 435.

المفردات الغريبة والصعبة:

منها على سبيل المثال: وصف تميم للأرض بالوتيرة، بمعنى الممتدة، وبالحجاب، بمعنى المطمئنة، ووصفه للفرس بالمقلص، أي المشمر، والخناب، أي الواسع المنخرين، وذكر الذحل بمعنى الثأر، واستعمل لفظ مجرية للبوة التي لها جراء، ووصف حمار الوحش بالأحقب، وهو الذي مؤخره أبيض، مشتق من الحقيبة التي توضع خلف الراكب، والعلج، وهو الغليظ، والأقب، وهو الضامر البطن، كما استعمل القبقاب، بمعنى الفرج[247].

واستعمل الأخزر بن لعط لفظ الأفوق، للسهم الذي انكسر فوقه، والمناصل، للسيف، والقواصل، للأنياب، والحفان، لصغار النعام[248]

واشتق الشاعر بديل من الدعوة للنادي، لفظ يندوا، كما استعمل القنابل للمجموعة من الخيل، وتكفت للخروج عن الطريق المرسوم، والحلال للسيد العظيم، والجعموس للعذرة[249].

واستعمل حسان لفظ العود للرجل المسن الخبير، والشفر للجانب، والعصل لاعوجاج الأسنان[250].

كما استعمل الروامس للرياح الشديدة التي ترمس الآثار، بمعنى تغطيها، والخبيئة للخمر، والمغث للضرب، واللحاء للوم، والمغلغلة بمعنى الرسالة[251].

واستعمل ابن الزبعري لفظ العيرانة للناقة العظيمة الخلق، والاعتلاج للاضطراب، والقرم للسيد الكريم، والذرا للأعالي[252].

---

(247) ينظر السيرة، 2: 391.

(248) ينظر السابق: 392.

(249) ينظر السابق: 393.

(250) ينظر السابق: 398.

(251) ينظرا لسابق: 422 ـ 423.

(252) ينظر السابق: 419 ـ 420.

واستخدم ابن زنيم لفظ الصرم، في المجموعة من البيوت[253].

واستعمل بجير بن زهير لفظ المريشة للسهام ذوات الريش، والانصياع للانشقاق، والثقاف للرماح.

واستعمل ابن مرداس لفظ الحنتم بمعنى الحنظل، والمزحم بمعنى كثير المزاحمة[254]، وكبش الوغى لبطل الحرب، والإزجاء للسرعة، وكابي الغبار لما ارتفع منه، والكوالح لانقباض الشفاه مع ظهور الأسنان[255].

واستعمل بجيد الخزاعي لفظ الهيدب بمعنى القريب من الأرض، والركام بمعنى ما تكوم بعضه فوق بعض، والقواضب للسيوف القواطع[256].

واستعمل شاعر من بين جذيمة لفظ المماصعة للمضاربة بالسيوف، والضبح للنفس المتتابع من الإعياء، واللظ للإلمام بالشيء والإلزام به.

واستعمل آخر لفظ الودائق لشدة الحر، والصفائق لمصائب الزمن والشحط للبعد الزماني والمكاني، والتوامق للحب[257].

واستعمل غيرهم ألفاظ الاشمعلال للافتراق، والإطل للخاصرة، والنهس لأكل اللحم بمقدم الأسنان، والوعس للسرعة، والقعس للتقاعس والتأخر، والشثن لغلظ الأصابع، والسبال للشعر الذي حول فم الأسد، والجحدة للأشجار المتداخلة القليلة الأغصان والورق، وهي ضد الأيكة[258].

وغيرها من الألفاظ الغريبة الصعبة، وهي تمثل المظهر البارز في الآثار الأدبية المصاحبة للفتح.

---

(253) ينظر السابق: 434.

(254) ينظر السيرة، 2: 426.

(255) ينظر السابق: 432.

(256) ينظر السابق: 428.

(257) ينظر السابق: 433 ـ 434.

(258) ينظر السابق: 435 ـ 436.

الألفاظ الرقيقة اللينة ونحوها:

وسوف نلتزم فيها جانب الاختصار، لكثرتها ووضوحها، منها:

استعمال تميم بن أسد للألفاظ: سالف، الأحقاب، طيب، نفس الأصحاب[259].

واستعمال ابن لعط لألفاظ: الحبس، العبد، طائل، شفينا النفوس، الظلم، المسير، الجافل.

واستعمل بديل ألفاظ: التفاقد من الفقد، القوم، الحبو، العقل، العواذل، الكذب، بيت الله[260].

واستعمل حسان ألفاظ: لحا لله، السراة، المفلاح من الفلاح[261]، بطحاء، الحز، الرقاب، السل، الثياب، الاحتلاب، الانفتاح[262]، العمرة، الفتح، الغطاء، الصبر، روح القدس، الخمر[263].

واستعمل عمرو الخزاعي ألفاظ: الحلف، الإسلام، النصر، الهداية، عباد الله، رسول الله، البحر، الخلف، الموعد، الميثاق، المؤكد، هجدا، ركعاً، سجداً، القتل[264].

واستعمل أبو سفيان بن الحارث ألفاظ: الحمل، الراية، الغلبة، الخيل، الحيرة، الظلام، الاهتداء، الهادي، الهوى، الإرضاء، الوعيد، الجيش، اللسان، اليد[265].

واستعمل ابن الزبعري ألفاظ: المليك، الشيطان، الغي، السنن، الإيمان، اللحم، العظام، القلب، الشهيد، النذير، الغرور، الرقاد، الهموم،

---

(259) ينظر السابق: 391.

(260) ينظر السيرة، السابق: 392 ـ 393.

(261) ينظر السابق: 394.

(262) ينظر السابق: 398.

(263) ينظر السابق: 423.

(264) ينظر السابق: 394 ـ 395.

(265) ينظر السابق: 401.

الليل، الحمى، الاعتذار، الضلال، الأواصر، الحلوم، الغفران، الفداء، الوالد، الرحمة، العلم، النور، الأغر، المحبة، البرهان، الشرف، الصدق، الحق، العظمة، الإله[266].

ومثل هذه الألفاظ من الكثرة بمكان واضح، ولعله يكفي فيها الأمثلة السابقة.

الألفاظ البذيئة والنابية:

قد يعثر المتتبع للآثار الأدبية المصاحبة لفتح مكة على بعض المفردات التي يستقبح ذكرها، أو النابية، أو ما شابه ذلك، إلا أنها من الندرة بمكان بين، ومما سجل منها على سبيل المثال:

استعمال حسان للفظ: الخصيين[267].

واستعمال الأخزر للفظ: التيوس[268].

واستعمال بديل للفظ: الجعموس، بمعنى العذرة، والنزو[269].

أسماء الرجال والقبائل والمدن ونحوها:

اشتمل الشعر المصور لفتح مكة على كثير من أسماء الأعلام، والقبائل والمدن، كما يبدو في المتابعة العاجلة التالية:

تميم بن أسد: بنو نفاثة، صخر، رزن.

الأخزر بن لعط: الأحابيش، بنو كعب، العبد رافع، بديل، أنصاب الحرم.

بديل: نوفل، الوتير، التلاعة، بيض، عتود، خيف رضوى، يوم الغميم،

---

(266) ينظر السابق: 419 ـ 420.

(267) السيرة، السابق: 394.

(268) ينظر السابق: 392.

(269) ينظر السابق: 393.

عبيس[270]، أنس، عدي، أبا عبس، الخنادم، نفيل، معبد[271].

حسان: ناقب، نوفل[272]، بطحاء مكة، بنو كعب، سهيل بن عمرو، صفوان، ابن أم مجاهد[273]، ذات الأصابع، الجواء، عذراء، بنو الحسحاس، شعثاء، بيت رأس، كداء، جبريل، رسول الله، الأنصار، معد، أبو سفيان، عبد الدار[274].

أبو سفيان بن الحارث: خيل اللات، خيل محمد، ثقيف، عامر، سهام، سردد[275].

كرز بن جابر: بنو فهر، أبو صخر.

حماس: يوم الخندمة، صفوان، عكرمة، أبو يزيد.

أخت مقيس: نميلة، مقيس[276].

ابن الزبعري: رسول المليك، لؤي، أحمد، سهم، مخزوم، هاشم.

هبيرة بن وهب: نجران، محمد[277].

ابن زنيم: تهامة، نجد، عويمر، ابن عبد الله، ابنة مهود، ذويب، كلثوم، سلمى[278].

بجير: الحبلق، مزينة، بنو خفاف، مكة، سليم، بنو عثمان.

---

(270) ينظر السيرة، 2: 391 ـ 393.

(271) ينظر السابق: 425.

(272) ينظر السابق: 394.

(273) ينظر السابق: 398.

(274) ينظر السابق: 421 ـ 423.

(275) ينظر السابق: 401.

(276) ينظر السابق: 408 ـ 410.

(277) ينظر السابق: 419 ـ 421.

(278) ينظر السابق: 424 ـ 425.

ابن مرداس: نجد، الحجاز الأدهم[279]، ضمار، المسجد، ابن مريم، قريش، الكتاب[280]، خالد، مالك[281].

جعدة الخزاعي: كعب بن عمرو، يوم الحديد، غزال، لفتا، فج طلاح[282].

شاعر من بني جذيمة: بسر، جحدم مرة، يوم الغميصاء[283].

الجحاف السلمي: النبي، حنين، البلد الحرام.

فتى من جذيمة: حبيش، حلية، الخوانق.

شاعر من جذيمة: مدلج، بوسى.

آخر من بني ليث: عامر، بنو كعب، ابن خويلد[284].

سادن العزى: العزى، خالد[285].

وهكذا اشتمل شعر الفتح على كثير من الأعلام والمواقع.

ومما سبق عرضه: يتضح أن فتح مكة خلف للبشرية ثروة أدبية رائعة، تمثلت في تلك الأشعار، والخطب، والحوارات، والمشادات، ونحوها، التي رافقت عملية التفح منذ خطوتها الأولى، وصورتها في مراحلها المتلاحقة، في المدينة، وفي مكة، وما حواليهما، وفي الطريق بينهما، وأبرزت مشاعر المسلمين، وأعدائهم على حد سواء، تجاه الفتح، وآثاره العامة على الإنسانية جمعاء، وإن المتتبع لهذه الآثار يرى مجسماً أمامه فرحة المسلمين بالنصر المبين، والآفاق الواسعة التي فتحها أمامهم لنشر الرحمة، والعدالة،

---

(279) ينظر السابق: 425 ـ 426.

(280) ينظر السابق: 427.

(281) ينظر السابق: 432.

(282) ينظر السابق: 427.

(283) ينظر السابق: 432.

(284) ينظر السيرة، 2: 433 ـ 435.

(285) ينظر السابق: 437.

والديموقراطية، في العالم كله، كما يرى أيضاً صورة الذل، والانكسار، والانتهاء إلى الأبد، ظاهرة على وجوه المشركين، وهم محشورون في ديارهم، أو مشتتون في الصحاري والقفار، كما يستفيد الدارس لهذه الآثار الكثيرة من العبر والعظات، المتمثلة في سماحة الإسلام، وعدله، ومراعاته للنواحي الإنسانية، واقتناع الأعداء به، وتقاطرهم عليه من كل فج وصوب، للعيش بأمان وسلام في ظلاله الوارفة.

الخاتمة:

وخاتمة هذا البحث ثبت موجز بأهم النتائج المستقاة منه في نقاط محددة، على النحو التالي:

1 ـ اشتملت الآثار الأدبية لفتح مكة على شعر كثير منوع.

2 ـ هذه الآثار صاحبت عملية الفتح منذ خطوتها الأولى حتى النهاية.

3 ـ تميزت الآثار الأدبية بفصاحتها، وبلاغتها.

4 ـ تفنن الأدباء في تنويع أساليبهم، فاعتمدوا وسائط منوعة بحسب الظروف والأحوال، كالاستفهام، والاستفهام الإنكاري، والتحضيض، والتهديد والوعيد، والملاينة، والتحذير، وأسلوب الحوار، وما شابه ذلك.

5 ـ تخلل هذه الآثار كثير من الألفاظ الغريبة والصعبة، وقلة نادرة من الألفاظ النابية.

6 ـ اشتملت على كثير من أسماء الأعلام، والقبائل، والمياه، وما شابهها.

7 ـ أهم الوسائط الفنية التي اعتمدت عليها تلك الآثار في تصوير مراحل الفتح: الاستعارة، والتشبيه، والكناية.

8 ـ تميزت أشعار الفتح ببعض المساجلات التي أخذت طابع الاتهام والرد، بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين، أو بين شعراء المسلمين بعضهم مع بعض.

9 ـ سماحة الرسول ﷺ، وعظمته، التي تبدَّتَ في مراعاته للنواحي الإنسانية

مع أعدى أعدائه، وحرصه على إنقاذهم من أنفسهم وتجبرها، وقد بلغ هذا الإحساس عنده مبلغاً لا يضاهيه فيه أحد، إذ أصدر حكمه بإهدار دم مجموعة من ألد أعداء الإسلام، ثم عفا عنهم لما جاؤوه تائبين معترفين بذنوبهم، ورق لغيرهم ممن كان قسا عليهم، لأسباب إنسانية صرفة، كما فعل مع أبي سفيان بن الحارث، وأوصى الجيش بعدم التعرض للمسالمين، وتبرأ من فعلة خالد بن الوليد مع بني جذيمة.

10 ـ يظهر من مصاحبة الآثار الأدبية تلك: تميز بعض الصحابة بالتشدد في جانب الإسلام، كما هو الحال مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي لا يفتأ شاهراً سيفه كلما أحس بأدنى خطر على الإسلام، كما في موقفه من حاطب بن أبي بلتعة لما بعث ينذر قريشاً بمقدم الرسول عليهم، وموقفه من أبي سفيان بن حرب لما تردد في إعلان إسلامه، وكما هو الحال مع حسان بن ثابت في موقفه من المشركين، وقسوته عليهم في الهجاء حتى إنهم ضجوا منه صراحة.

والله الموفق، والهادي إلى الصراط المستقيم.

المصادر والمراجع

1 ـ أبو العباس أحمد القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (ط:1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959).

2 ـ الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط4، دار الجيل، بيروت، 1972).

3 ـ **شرح ديوان حسان بن ثابت**، ضبط وتصحيح: عبد الرحمن البرقوقي، (ط:1، دار الأندلس، بيروت، 1966).

4 ـ صفي الدين عبد المؤمن البغدادي، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق: علي البيجاوي، (ط1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1954).

5 ـ عبد الرحمن السهيلي، **الروض الأنف**، تقديم: طه عبد الرؤوف، (لا. ط. دار المعرفة، لا. ب. 1978).

6 ـ عبد القادر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب العرب**، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط:1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986).

7 ـ عبد الملك بن هشام المعافري، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (ط:2، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955).

8 ـ مجمع اللغة العربية/ القاهرة، **المعجم الوسيط**، إخراج أحمد حسن الزيات وآخرين، (لا. ط.، لا. ن.، لا. ت.).

9 ـ ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، (لا. ط.، دار صادر، بيروت، 1977).

10 ـ يوسف بن عبد الله بن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي البيجاوي، (ط:1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، لا. ت).